تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي بن حسن حلاق و الدكتور محمود أحمد الأطرش

سُورَةُ النُّورِ

ترتيبها ٢٤ — آياتها ٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ
وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

سورة النور مدنية[١] وهي أربع وستون آية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿سُورَةٌ﴾ أي هذه سورةٌ، أو فيما أوحينا إليك سورةٌ ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ صفتُها، ومَنْ نصبها جعله مفسِّراً لناصبها فلا يكون له محلٌّ إلا إذا قُدِّر اتْلُ أو دونك أو نحوُه. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ وفرضنا ما فيها من الأحكام، وشدده ابن كثير وأبو عمرو لكثرة فرائضها، أو المفروضِ عليهم، أو للمبالغة في إيجابها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ واضحاتِ الدلالة[٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتتقون المحارم. وقرىء بتخفيف الذال[٣].

(٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ أي فيما فرضنا أو أنزلنا حكمُهما وهو الجلْد، ويجوز أن يُرفعا بالابتداء والخبرُ ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ والفاءُ لتضمُّنها معنى الشرط إذ اللام بمعنى الذي. وقرىء بالنصب على

---

(١) مدنية كلها بإجماع العلماء.
أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت سورة النور بالمدينة، وأخرج عن ابن الزبير مثله.
انظر «الدر المنثور» (٦/ ١٢٤) و«زاد المسير» (٦/ ٣).

(٢) وتكرير أنزلنا لإبراز كمال العناية بشأنها (س٦/ ١٥٥).

(٣) من عادة البيضاوي الإشارة للقراءات غير المتواترة بلفظ قرىء، إلا أنه هنا أشار بلفظ قرىء لمن قرأ بتخفيف الذال وهي قراءة متواترة قرأ بها حمزة وعلي وخلف وحفص. انظر تفسير النسفي (٣/ ١٣٠).

إضمار فعل يفسره الظاهر وهو أحسنُ من نصب سورة لأجل الأمر، والزانِ بلا ياء[(١)]، وإنما قَدّم الزانية لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرّضها للرجل وعَرْضِ نفسها عليه، ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها. والجَلْدُ ضرب الجِلْد، وهو حكمٌ يُخصّ بمن ليس بمحصَن لِما دل على أن حدّ المحصَن هو الرجم، وزاد الشافعي عليه تغريبَ الحرّ سنةً لقوله عليه الصلاة والسلام «البِكرُ بالبكر جلدُ مائةٍ وتغريبُ عام»[(٢)]، وليس في الآية ما يدفعه لينسخ أحدُهما الآخرَ نسخاً مقبولاً أو مردوداً. وله في العبد ثلاثةُ أقوال. والإحصان: بالحرية والبلوغ والعقل والإصابةِ في نكاح صحيح، واعتبرت الحنفية الإسلامَ أيضاً وهو مردودٌ برجمه عليه الصلاة والسلام يهوديين[(٣)]، ولا يعارضه: «من أشرك بالله فليس بمُحصَن»[(٤)] إذ المرادُ بالمحصَن الذي يُقتصّ له من المسلم. ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ رحمة. ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ في طاعته وإقامةِ حدِّه فتُعطّلوه تُسامحوا فيه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لو سرقت فاطمةُ بنتُ محمد لقطعت يدها»[(٥)]. وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة[(٦)]، وقرئت بالمد على فَعالة. ﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ فإن الإيمان يقتضي الجدَّ في طاعة الله تعالى والاجتهادَ في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التهييج. ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ زيادةٌ في التنكيل فإن التفضيحَ قد ينكِّل أكثرَ مما ينكّل التعذيب. والطائفةُ فِرقةٌ يمكن أن تكون حافّةً حول شيء، من الطوف، وأقلُّها ثلاثة وقيل واحداً واثنان، والمراد جمع يحصُل به التشهير.

(٣) ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ﴾ إذ الغالبُ أن المائلَ إلى الزنا لا يرغب في نكاح الصوالح والمسافِحةَ لا يرغب فيها الصُلَحاء، فإن المشاكلة علةٌ للألفة والتضامّ والمخالفةَ سببٌ للنفرة والافتراق. وكان حقُّ المقابلة أن يقال والزانية لا تنكِح إلا من هو زانٍ أو مشرك، لكنّ المرادَ بيانُ أحوال الرجال في الرغبة فيهن، لأن الآية نزلت في ضَعَفة المهاجرين لمَا همّوا أن يتزوجوا بغايا يُكرين أنفسَهن لِيُنفقن عليهم من أكسابهن على عادة الجاهلية[(٧)] ولذلك قدم الزاني. ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لأنه تشبّهٌ بالفساق وتعرّضٌ للتهمة وتسبّبٌ لسوء القالة والطعْنِ في النسب وغيرِ ذلك من المفاسد، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم مبالغةً. وقيل النفيُ بمعنى النهي، وقد قرىء به. والحُرمةُ على ظاهرها، والحكمُ مخصوصٌ بالسبب الذي ورد فيه أو منسوخٌ بقوله تعالى ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾[(٨)] فإنه يتناول المسافحاتِ، ويؤيده أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال: «أولُه

---

(١) قوله: والزانِ بلا ياء معطوف على قوله وقرىء بالنصب، أي وقرىء والزانِ بلا ياء.

(٢) لم أجده.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٦٣١ رقم ٣٦٣٥) ومسلم (٣/ ١٣٢٦ رقم ٢٦/ ١٦٩٩) من حديث ابن عمر.

(٤) لم أجده.

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٥١٣ رقم ٣٤٧٥) و(٧/ ٨٧ رقم ٣٧٣٣) و(١٢/ ٨٧ رقم ٦٧٨٨) ومسلم (٣/ ١٣١٥ رقم ٨ ـ ١١) وأبو داود (٤/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨ رقم ٤٣٧٣) والترمذي (٤/ ٣٧ ـ ٣٨) والنسائي (٨/ ٧٢ ـ ٧٥ رقم ٤٨٩٤ ـ ٤٩٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أي بفتح همزة رأفة أي رَأَفَةٌ، وقرئت رَآفة.

(٧) أخرجه ابن جرير (١٠/ ج١٨/ ٧١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص بإسناد صحيح.

(٨) النور: «٣٢».

سِفاحٌ وآخِرُه نكاحٌ والحرامُ لا يحرم الحلال»[(١)]، وقيل المرادُ بالنكاح الوطءُ فيؤول إلى نهي الزاني عن الزنا إلا بزانية، والزانيةِ أن يزنيَ بها إلا زانٍ وهو فاسد.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

(٤) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ يقذِفونهن بالزنا، لوَصْفِ المقذوفات بالإحصان وذِكرِهن عَقيبَ الزواني واعتبارِ أربعة شهداءَ بقوله ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ والقذفُ بغيره مثلُ يا فاسق ويا شاربَ الخمر يوجب التعزيرَ كقذف غيرِ المحصَن، والإحصانُ ههنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة عن الزنا، ولا فرق فيه بين الذكر والأنثى. وتخصيصُ المحصَنات لخصوص الواقعة، أو لأن قذفَ النساء أغلبُ وأشنع. ولا يشترط اجتماعُ الشهود عند الأداء ولا تعتبر شهادةُ زوج المقذوفة خلافاً لأبي حنيفة، وليكن ضربُه أخفَّ من ضرب الزنا لضعف سببه واحتمالِه، ولذلك نَقَص عددُه. ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ أيَّ شهادة كانت لأنه مُفترٍ. وقيل شهادتَهم في القذف، ولا يتوقف ذلك على استيفاء الجَلد خلافاً لأبي حنيفة، فإن الأمر بالجلد والنهيَ عن القَبول سيان في وقوعهما جواباً للشرط لا ترتيبَ بينهما فيترتبان عليه دفعة، كيف وحالُه قبل الجلد أسوأُ مما بعده ﴿أَبَدًا﴾ ما لم يتُب، وعند أبي حنيفة إلى آخر عمره. ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المحكومُ بفسقهم.

(٥) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ عن القذف. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أعمالَهم بالتدارُك، ومنه الاستسلامُ للحد أو الاستحلالُ من المقذوف. والاستثناءُ راجعٌ إلى أصل الحكم وهو اقتضاءُ الشرط لهذه الأمورِ؛ ولا يلزَمه سقوطُ الحد به كما قيل لأن من تمام التوبة الاستسلامَ له أو الاستحلال؛ ومحلُّ المستثنى النصبُ على الاستثناء، وقيل إلى النهي ومحلُّه الجرُّ على البدل مِنْ هم في لهم، وقيل إلى

---

(١) إن الحديث يتألف من حدثين:
(الأول): (أوله سفاح وأخره نكاح) موقوف على ابن عباس.
(والثاني): (الحرام لا يحرم الحلال) مرفوع من حديث عائشة.
● أما حديث ابن عباس الموقوف: فقد أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ٢٠٢). وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٢٤٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٥٥). والدارقطني في «السنن» (٣/ ٢٦٨ رقم ٩١).
● أما حديث عائشة المرفوع: فقد أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٢٦٨ رقم ٩٠) وابن حبان في «المجروحين» (٢/ ٩٨ ـ ٩٩) والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ١٦٩) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩) وعزاه للطبراني في الأوسط. وقال: فيه عثمان بن عبدالرحمٰن الزهري وهو متروك.
● ولحديث عائشة شاهد من حديث ابن عمر.
أخرجه ابن ماجة (١/ ٦٤٩ رقم ٢٠١٥) والدارقطني في «السنن» (٢/ ٢٦٨ رقم ٨٩).
قال البوصري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٣٥٠ رقم ٧٢٢) «هذا إسناد ضعيف، لضعف عبدالله بن عمر العمري. . .» هـ.
والخلاصة أن حديث عائشة ضعيف والله أعلم.

الأخيرة[١] ومحلُّه النصبُ لأنه من موجَب، وقيل منقطِعٌ متصل بما بعده. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ علة للاستثناء.

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾
وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ نزلت في هلال بنِ أُمية رأى رجلاً على فراشه[٢]. وأنفسُهم بدل من شهداءُ أو صفةٌ لهم على أنّ إلا بمعنى غير. ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ فالواجبُ شهادةُ أحدهم أو فعليهم شهادةُ أحدهم وأربعَ نُصب على المصدر، وقد رفعه حمزةُ والكسائي وحفصٌ على أنه خبرُ شهادة. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلق بشهاداتٍ لأنها أقرب، وقيل بشهادة لتقدمها. ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي فيما رماها به من الزنا، وأصله على أنه فحُذف الجارُّ وكُسرت إنّ وعُلّق العامل عنه باللام تأكيداً.

(٧) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ والشهادةُ الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في الرمي. هذا لِعانُ الرجل، وحُكمُه: سقوطُ حدِّ القذف عنه، وحصولُ الفُرقة بينهما بنفسه فرقةَ فسخٍ عندنا لقوله عليه الصلاة والسلام: «المتلاعنان لا يجتمعان أبداً»[٣]. وتفريقُ الحاكم فُرقةُ طلاقٍ عندَ أبي حنيفةَ، ونفيُ الولد إن تعرض له فيه، وثبوتُ حد الزنا على المرأة لقوله:

(٨) ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ أي الحد. ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيما رماني به.

(٩) ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في ذلك، ورفعُ الخامسة بالابتداء وما بعدها الخبرُ، أو بالعطف على أن تشهد، ونصَبَها حفصٌ عطفاً على أربعَ. وقرأ نافع ويعقوبُ أنْ لَعْنَةُ اللهِ وأنْ غَضِبَ اللهُ بتخفيف النون فيهما وكسرِ الضاد وفتحِ الباء من غضب ورفعِ الهاء من اسم الله[٤]، والباقون بتشديد النون فيهما ونصبِ التاء وفتح الضاد وجر الهاء[٥].

---

(١) قوله: وقيل إلى النهي... وقيل إلى الأخيرة. معطوف على قوله، والاستثناء راجع إلى الحكم...

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٤٤٩ رقم ٤٧٤٧) والبغوي في شرح السنة (٩/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

(٣) أخرجه الدارقطني (٣/ ٢٧٦) وقال الزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٢٥١) إسناده جيد. وله شواهد من حديث سهل بن سعد الساعدي أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٧٥) وفي سنده عياض الفهري لين الحديث كما في التقريب (٢/ ٩٦). ومن حديث علي وابن مسعود أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٧٧).

(٤) ذكر البيضاوي أن قراءة نافع ويعقوب واحدة، لكن ذكر ابن مهران في كتابه المبسوط في القراءات العشر ص٢٦٦ أن يعقوب قد قرأ «أنْ لَعْنَتُ اللهِ» و«أنْ غَضَبُ اللهِ» فهي بنصب الضاد والله أعلم.

(٥) وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها، لما أنها مادة الفجور، ولأن النساء كثيراً ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقْعه عن قلوبهن، بخلاف غضبه تعالى (س٦/ ١٥٩).

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا
لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

(١٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ متروكُ الجواب للتعظيم، أي لَفَضحكم وعاجلكم بالعقوبة.

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ بأبلغ ما يكون من الكذب، من الأَفْك وهو الصَّرْف لأنه قول مأفوك عن وجهه. والمرادُ ما أُفك به على عائشةَ رضي الله تعالى عنها، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام استصحبها في بعض الغزوات فأذن ليلةً في القُفول بالرحيل، فمشتْ لقضاء حاجة ثم عادت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عِقدٌ مِن جَزْع ظُفار قد انقطع فرجعت لتلتمسه، فظَن الذي كان يُرحِّلُها أنها دخلت الهودج فرحّله على مطيتها وسار، فلما عادت إلى منزلها لم تجد ثمةَ أحداً فجلست كي يرجعَ إليها مُنشد، وكان صفوانُ بنُ المعطَّل السُّلَميُّ رضي الله تعالى عنه قد عرّس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلها فعرفها فأناخ راحلته فركبَتْها فقادها حتى أتيا الجيشَ، فاتُّهمت به. ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جماعةٌ منكم، وهي من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة، يريد عبدَالله بنَ أُبيّ وزيدَ بنَ رفاعة وحسانَ بنَ ثابت ومِسْطَحَ بنَ أُثاثةَ وحَمْنَةَ بنتَ جحش ومن ساعدهم، وهي خبر إنّ، وقولُه ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ مستأنفٌ، والخطاب للرسول ﷺ وأبي بكر وعائشةَ وصفوانَ رضي الله تعالى عنهم، والهاء للإفك. ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لاكتسابكم به الثوابَ العظيمَ، وظهورِ كرامتكم على الله بإنزال ثماني عشرة آيةً في براءتكم، وتعظيمِ شأنكم، وتهويلِ الوعيد لمن تكلم فيكم، والثناءِ على من ظن بكم خيراً ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ لكلٍ جزاءُ ما اكتسب بقدر ما خاض فيه مختصاً به ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ مُعظمَه. وقرأ يعقوبُ بالضم[1]، وهو لغة فيه ﴿مِنْهُمْ﴾ من الخائضين، وهو ابنُ أُبيّ فإنه بدأ به وأذاعه عداوةً لرسول الله ﷺ، أو هو وحسانُ ومِسْطح فإنهما شايعاه بالتصريح به. والذي بمعنى الذين ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة. أو في الدنيا بأن جُلدوا، وصار ابنُ أُبي مطروداً مشهوراً بالنفاق، وحسانُ أعمى أشلَّ اليدين، ومِسْطحُ مكفوفَ البصر.

(١٢) ﴿لَّوْلَآ﴾ هلاّ، ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[2]. وإنما عُدل فيه من الخطاب إلى الغَيبة مبالغةً في التوبيخ، وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظنَّ الخير بالمؤمنين والكفَّ عن الطعن فيهم وذبَّ الطاعنين عنهم كما يذبّونهم عن أنفسهم. وإنما جاز الفصلُ بين لولا وفِعْلِه بالظرف لأنه منزّلٌ منزلتَه من حيث إنه لا ينفك عنه، وذلك يتسع فيه ما لا يتسع في غيره، وذلك لأن ذكرَ الظرف أهمُّ فإن التحضيضَ على أن لا يُخِلّوا بأوّله. ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ كما يقول المستيقنُ المطّلع على الحال.

---

(١) أي بضم الكاف (كُبْرَهُ).
(٢) الحجرات: «١١».

لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ
أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾

(١٣) ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ من جملة المقول تقريراً لكونه كذباً، فإن ما لا حجة عليه كذِبٌ عند الله أي في حكمه، ولذلك رتب الحد عليه.

(١٤) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ لولا هذه لامتناع الشيء لوجود غيره، والمعنى لولا فضلُ الله عليكم في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها الإمهالُ للتوبة ورحمتُه في الآخرة بالعفو والمغفرة المقدران لكم. ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلاً. ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ﴾ خضتم. ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يُستحقر دونه اللومُ والجَلْد.

(١٥) ﴿إِذْ﴾ ظرف لمسّكم أو أفضتم. ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ يأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه، يقال تلقَّىٰ القولَ كتلقّفه وتلقنه. وقرىء تَتَلَقَّوْنَه على الأصل، وتَلْقَونه من لقِيَه إذا لقِفه، وتِلَقَّوْنه بكسر حرف المضارعة، وتُلْقُونه من إلقائه بعضهم على بعض، وتَلِقُونَهُ وتَأْلِقُونَهُ من الألْق والإلْقِ وهو الكذب، وتَثْقَفونه من ثِقفتُه إذا طلبتُه فوجدته، وتَقْفُونه أي تتبعونه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم﴾ أي وتقولون كلاماً مختصاً بالأفواه بلا مساعدة من القلوب. ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ لأنه ليس تعبيراً عن علم به في قلوبكم، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[1] ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ سهلاً لا تبعةَ له. ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوِزر واستجرارِ العذاب. فهذه ثلاثةُ آثام مترتبة عُلّق بها مسُّ العذاب العظيم: تلقّي الإفك بألسنتهم، والتحدثُ به من غير تحقق، واستصغارُهم لذلك وهو عند الله عظيم.

(١٦) ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما ينبغي وما يصح لنا. ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ يجوز أن تكون الإشارةُ إلى القول المخصوصِ وأن تكون إلى نوعه، فإنّ قذفَ آحادِ الناس محرمٌ شرعاً فضلاً عن تعرض الصدّيقة ابنةِ الصديق حُرمةِ رسول الله ﷺ. ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تعجب من ذلك الإفكِ أو ممن يقول ذلك، وأصله أن يُذكر عند كل متعجَّب تنزيهاً لله تعالى من أن يصعُب عليه مثلُه، ثم كثُر فاستعمل لكل متعجّب. أو تنزيهٌ لله تعالى من أن تكون حُرمةُ نبيه فاجرةً، فإن فجورها يُنفر عنه ويُخِلّ بمقصود الزواج بخلاف كفرها، فيكون تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ لعظمة المبهوت عليه، فإن حقارةَ الذنوب وعِظَمَها باعتبار متعلَّقاتها.

(١٧) ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ﴾ كراهةَ أن تعودوا، أو في أن تعودوا. ﴿أَبَدًا﴾ ما دمتم أحياءً مكلفين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يمنع عنه، وفيه تهييجٌ وتقريع.

---

(١) آل عمران: «١٦٧».

وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ الدالةَ على الشرائع ومحاسن الآداب كي تتعظوا وتتأدبوا. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالأحوال كلها[١]. ﴿حَكِيمٌ﴾ في تدابيره ولا يجوز الكَشْحنة[٢] على نبيه ولا يقرِّره عليها.

(١٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ يريدون ﴿أَن تَشِيعَ﴾ أن تنتشر. ﴿ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ بالحد والسعير إلى غير ذلك. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما في الضمائر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظاهرُ، والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة.

(٢٠) ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ تكريرٌ للمِنّة بترك المعاجلة بالعقاب للدلالة على عِظَم الجريمة، ولذا عُطف قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على حصول فضله ورحمتِه عليهم، وحُذف الجواب وهو مستغنًى عنه بذكره مرة[٣].

(٢١) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بإشاعة الفاحشة. وقرىء بفتح الطاء، وقرأ نافع والبزي وأبو عمرٍو وأبو بكر وحمزةُ بسكونها ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بيان لعلة النهي عن اتباعه، والفحشاءُ ما أفرط قبحُه، والمنكر ما أنكره الشرع[٤]. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بتوفيق التوبة الماحية للذنوب وشرعِ الحدود المكفرةِ لها ﴿مَا زَكَىٰ﴾ ما طَهُر من دنسها. ﴿مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ آخرَ الدهر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ بحمله على التوبة وقَبولِها. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم.

(٢٢) ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ ولا يحلِفْ، افتعالٌ من الأَلِيّة، أو ولا يُقصّر من الأُلُوّ. ويؤيد الأول أنه قرىء ولا يَتألَّ، وأنه نزل في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد حلف أن لا يُنفق على مِسْطحٍ بعدُ وكان ابنَ خالته وكان من فقراء المهاجرين ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ في الدين ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ في المال، وفيه

---

(١) إظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي، والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة (س٦/١٦٣).

(٢) الكشحنة هي إضمار العداوة.

(٣) إظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة (س٦/ ١٦٤).

(٤) قال: «ومَنْ يتبع خطوات الشيطان» ولم يقل ومن يتبعها فوضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير (س٦/ ١٦٤).

دليلٌ على فضل أبي بكر وشرفِه رضي الله تعالى عنه ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ على أنٍ لا يؤتوا، أو في أن يؤتوا. وقرىء بالتاء على الالتفات. ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صفات لموصوف واحد، أي ناساً جامعين لها لأن الكلام فيمن كان كذلك، أو لموصوفات أقيمت مُقامَها فيكون أبلغَ في تعليل المقصود ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عما فرط منهم. ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ بالإغماض عنه ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ على عفوكم وصفحِكم وإحسانِكم إلى مَنْ أساء إليكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مع كمال قدرته فتخلّقوا بأخلاقه. روي أنه عليه الصلاة والسلام قرأها على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقال: بلى أُحب، ورَجَع إلى مِسطح نفقتَه[(١)].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

(٢٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ العفائفَ. ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ عما قُذفن به ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بالله وبرسوله، استباحةً لِعرضهن وطعناً في الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كابن أُبَيّ ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ﴾ لِما طعنوا فيهن. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لِعظَم ذنوبهم، وقيل هو حكمُ كلِّ قاذفٍ ما لم يتُب، وقيل مخصوصٌ بمن قذف أزواجَ النبي ﷺ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لا توبة له، ولو فتشت وعيداتِ القرآن لم تجد أغلظَ مما نزل في إفك عائشةَ رضي الله تعالى عنها.

(٢٤) ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾[(٢)] ظرفٌ لِما في لهم من معنى الاستقرار، لا للعذاب لأنه موصوف. وقرأ حمزة والكسائي بالياء للتقدم والفصل. ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ يعترفون بها بإنطاق الله تعالى إياها بغير اختيارهم، أو بظهور آثاره عليها، وفي ذلك مزيدُ تهويل للعذاب.

(٢٥) ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ جزاءَهم المستحَقّ ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ لمعاينتهم الأمرَ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ الثابتُ بذاته الظاهرُ ألوهيتُه لا يشاركه في ذلك غيرُه، ولا يقدر على الثواب والعقاب سواه، أو ذو الحق البيِّنِ أي العادلُ الظاهرُ عدلُه، ومن كان هذا شأنَه ينتقم من الظالم للمظلوم لا محالة.

(٢٦) ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي الخبائثُ يتزوجن الخِباثَ وبالعكس، وكذلك أهلُ الطيّب فيكون كالدليل على قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني أهلَ بيت النبي ﷺ، أو الرسولَ وعائشةَ وصفوانَ رضي الله تعالى عنهم ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ إذ لو صدق لم تكن زوجته

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢٧٢ رقم ٢٦٦١) و(٧/ ٤٣٤ رقم ٤١٤١) و(٨/ ٤٤٥ رقم ٤٧٥٠) و(١١/ ٥٦٤ رقم ٦٦٧٩) ومسلم (٤/ ٢١٣٦ رقم ٥٦). كلاهما في سياق حديث الإفك الطويل. من حديث عائشة.

(٢) وتقديم (عليهم) على الفاعل للمسارعة إلى بيان كون الشهادة ضارة لهم، مع ما فيه من التشويق إلى المؤخر (س٦/ ١٦٦).

عليه الصلاة والسلام ولم يُقرّرْ عليها، وقيل الخبيثاتُ والطيبات من الأقوال، والإشارة إلى الطيبين، والضمير في يقولون للآفكين، أي مبرؤون مما يقولون فيهم، أو للخبيثين والخبيثات أي مبرؤون من أن يقولوا مثلَ قولهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يعني الجنة، ولقد برّأ الله أربعةً بأربعة: برأ يوسفَ عليه الصلاة والسلام بشاهد من أهلها، وموسى عليه الصلاة والسلام من قول اليهود فيه بالحجَر الذي ذهب بثوبه، ومريمَ بإنطاق ولدها، وعائشةَ رضي الله تعالى عنها بهذه الآياتِ الكريمة مع هذه المبالغة، وما ذلك إلا لإظهار منصِب الرسول ﷺ وإعلاءِ منزلته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

(٢٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ التي لا تسكُنونها، فإن الآجِرَ والمُعير أيضاً لا يدخُلان إلا بإذن. ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ تستأذنوا، من الاستئناس بمعنى الاستعلام، من آنس الشيءَ إذا أبصره، فإن المستأذن مستعلِمٌ للحال مستكشفٌ أنه هل يُراد دخولُه أو يؤذن له، أو من الاستئناس الذي هو خلافُ الاستيحاش فإن المستأذن مستوحِشٌ خائفٌ أن لا يُؤذَن له، فإذا له أذن استأنس، أو تتعرفوا هل ثَمّ إنسانٌ من الإنس ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ بأن تقولوا السلام عليكم أأدخُل؟ وعنه عليه الصلاة والسلام: «التسليمُ أن يقول السلامُ عليكم أأدخل ثلاث مرات، فإن أُذن له دخل وإلا رجع»[1]. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي الاستئذانُ أو التسليمُ خيرٌ لكم من أن تدخُلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية، كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غيرَ بيته قال: حُيّيتم صباحاً أو حُييتم مساءً ودخل، فربما أصاب الرجلَ مع امرأته في لِحاف. وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذن على أمي، قال: «نعم»، قال: إنها ليس لها خادمٌ غيري أأستأذن عليها كلما دخلتُ، قال: «أتحب أن تراها عُرْيانة»، قال: لا، قال: «فاستأذِنْ»[2]. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ متعلق بمحذوف، أي أُنزِل عليكم أو قيل لكم هذا إرادةَ أن تذكُروا وتعمَلوا بما هو أصلَح لكم.

(٢٨) ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ يأذن لكم ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ حتى يأتيَ مَنْ يأذن لكم، فإن

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ. نعم أخرج البخاري (١١/٢٧ رقم ٦٢٤٥) ومسلم (٣/١٦٩٤ ـ ١٦٩٧ رقم ٣٣ ـ ٣٧).
في سياق قصة أبي موسى مع عمر رضي الله عنهم. من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٩٦٣ رقم١) وأبو داود في المراسيل (ص٣٣٦) وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١٠/ج١٨/١١١ ـ ١١٢) من حديث عطاء بن يسار مرسلاً.
قال ابن عبدالبر في «التمهيد» (١٦/٢٢٩): «. . . وهذا الحديث لا أعلم يستند من وجه صحيح بهذا اللفظ. وهو مرسل صحيح مجتمع على صحة معناه. . .» هـ. وقال الشيخ شعيب في تخريج «المراسيل» رجاله ثقات رجال الشيخين» هـ.

المانعَ من الدخول ليس الاطلاعَ على العورات فقط، بل وعلى ما يُخفيه الناسُ عادة مع أن التصرفَ في مِلك الغير بغير إذنه محظور، واستُثنى ما إذا عرَض فيه حَرَقٌ أو غرَقٌ أو كان فيه منكرٌ ونحوُها ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ ولا تُلِحّوا. ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ الرجوعُ أطهرُ لكم عما لا يخلو الإلحاحُ والوقوفُ على الباب عنه من الكراهة وتركِ المروءة، أو أنفعُ لدينكم ودنياكم ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيعلم ما تأتون وما تذرون مما خوطبتم به فيجازيكم عليه.

لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾
قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾
وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ
بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ
أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ
ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

(٢٩) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالرُبُط[١] والحوانيت والخانات والخانقات[٢] ﴿فِيهَا مَتَـٰعٌ﴾ استمتاع. ﴿لَّكُمْ﴾ كالاستكنان من الحر والبرد وإيواءِ الأمتعة والجلوس للمعاملة، وذلك استثناءٌ من الحكم السابق لشموله المسكونةَ وغيرَها. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ وعيدٌ لمن دخل مدخلاً لفساد أو تطلُّعٍ على عورات.

(٣٠) ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي ما يكون نحوَ محرّم. ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانُهم، ولمّا كان المستثنى منه كالشاذ النادر بخلاف الغضّ أطلقه، وقيّد الغضّ بخرف التبعيض. وقيل حفظُ الفروج ههنا خاصّة سَترها. ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أنفعُ لهم أو أطهرُ لما فيه من البعد عن الرِيبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه إجالةُ أبصارهم واستعمالُ سائرِ حواسّهم وتحريكُ جوارحهم وما يقصِدون بها، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون.

(٣١) ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ فلا ينظُرن إلى ما لا يحِلّ لهن النظرُ إليه من الرجال ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بالتستر أو التحفظ عن الزنا، وتقديمُ الغضّ لأن النظر بريدُ الزنا. ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالحُلِيّ والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها لمن لا يحل أن تُبدى له. ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سَترها حرجاً، وقيل المرادُ بالزينة مواضعُها على حذف المضاف، أو ما يعُمّ المحاسنَ الخَلقية والتزيينية، والمستثنى هو الوجهُ والكفانِ لأنها ليست بعورة،

---

(١) الرُّبُط هي ما يبنىٰ للفقراء.
(٢) لعل المراد بها الأماكن الخيرية أو الحمامات.

والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرّة عورةٌ لا يحل لغير الزوج، والمحرّمُ النظرُ إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتَحمُّلِ الشهادة. ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ سَتراً لأعناقهن. وقرأ نافعٌ وعاصمٌ وأبو عمرٍو وهشامٌ بضم الجيم. ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كرّره لبيان من يحل له الإبداءُ ومن لا يحل له. ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فإنهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهنّ حتى الفرج بكُرْهٍ. ﴿أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم وقلةِ توقّع الفتنة من قِبَلهم لِما في الطباع من النفرة عن مماسّة القرائب، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المِهنة والخِدمة، وإنما لم يُذكر الأعمامُ والأخوالُ لأنهم في معنى الإخوان، أو لأن الأحوط أن يتستّرن عنهم حذراً أن يصِفوهن لأبنائهم ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ يعني المؤمناتِ فإن الكافراتِ لا يتحرّجن عن وصفهن للرجال أو النساءِ كلِّهن، وللعلماء في ذلك خلاف. ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ يعُم الإماءَ والعبيد، لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمةَ بعبد وهبَه لها وعليها ثوبٌ إذا قنّعت به رأسَها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلُغ رأسها، فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوكِ وغلامُكِ»[1]. وقيل المراد بها الإماءُ، وعبدُ المرأة كالأجنبي منها. ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي أولي الحاجة إلى النساء وهم الشيوخُ الهُم[2] والممسوحون[3]، وفي المجبوب[4] والخَصيّ خلافٌ، وقيل البُلْه الذين يتبعون الناسَ لفضل طعامهم ولا يعرِفون شيئاً من أمور النساء. وقرأ ابن عامر وأبو بكر «غيرَ» بالنصب على الحال ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ لعدم تمييزهم من الظهور بمعنى الاطلاع، أو لعدم بلوغهم حدَّ الشهوةِ، من الظهور بمعنى الغلَبة. والطفلُ جنسٌ وُضع موضعَ الجمع اكتفاءً بدلالة الوصف. ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ﴾ ليتقعقع خَلْخالُها فيُعلمَ أنها ذاتُ خلخال فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال، وهو أبلغُ من النهي عن إظهار الزينة وأدلُّ على المنع من رفع الصوت. ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إذ لا يكاد يخلو أحد منكم من تفريط سيما في الكف عن الشهوات، وقيل توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه وإن جُبّ بالإسلام لكنه يجب الندمُ عليه والعزمُ على الكف عنه كلما يُتذكّر. وقرأ ابن عامر «أيهُ المؤمنون» وفي الزخرف «يا أيهُ الساحر»[5] وفي الرحمن «أيهُ الثقلان»[6] بضم الهاء في الوصل في الثلاثة، والباقون بفتحها، ووقف أبو عمرو والكسائي عليهن بالألف، ووقف الباقون بغير الألف. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بسعادة الدارين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٣٥٩ رقم ٤١٠٦) وفي إسناده: سالم بن دينار وثقه ابن معين.
وقال أحمد: أرجو أنه لا بأس به، وقال أبو زرعة: لين الحديث، وقال الحافظ: مقبول.
[انظر «الجرح والتعديل» (٤/ ١٨٠ ـ ١٨١) و«التقريب» (١/ ٢٧٩ رقم ٦)].
والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

(٢) الشيخ الهِمّ: الفاني وهي هِمّة.

(٣) الممسوح: من لا آلة له.

(٤) المجبوب: مقطوع الذكر.

(٥) الزخرف: «٤٩».

(٦) الرحمٰن: «٣١».

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾

(٣٢) ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ لمّا نهىٰ عما عسىٰ يُفضي إلى السفاح المُخِلّ بالنسب المقتضي للألفة وحسنِ التربية ومزيدِ الشفقة المؤدية إلى بقاء النوع بعد الزجر عنه مبالغةً فيه عقّبه بأمر النكاح الحافظِ له. والخطابُ للأولياء والسادة. وفيه دليلٌ على وجوب تزويج المولية والمملوك وذلك عند طلبهما، وإشعارٌ بأن المرأة والعبد لا يَستبدّان به إذ لو استبدا لما وجب على الولي والمولىٰ. وأيامَى مقلوبُ أيايم كيتامى، جمع أَيِّم وهو العزَب ذكراً كان أو أنثى بِكراً كان أو ثيباً قال:

فَــإِنْ تَنْكِحِــي أَنْكِــحْ وَإِنْ تَتَــأَيَّمِــي ـ وَإِنْ كُنْــتُ أَفْتَــى مِنْكُــمُ ـ أَتَــأَيَّــمِ [(١)]

وتخصيصُ الصالحين لأن إحصانَ دينهم والاهتمامَ بشأنهم أهمّ، وقيل المراد الصالحون للنكاح والقيام بحقوقه. ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ردٌّ لِما عسى يمنع من النكاح، والمعنى لا يَمنعَنّ فقرُ الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فإن في فضل الله غُنيةً عن المال فإنه غادٍ ورائحٌ. أو وعدٌ من الله بالإغناء لقوله ﷺ: «اطلبوا الغنى في هذه الآية»[(٢)]، لكنْ مشروطٌ بالمشيئة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾[(٣)]. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ ذو سَعة لا تنفد نعمتُه إذ لا تنتهي قدرتُه ﴿عَلِيمٌ﴾ يبسُط الرزقَ ويقدِر على ما تقتضيه حكمتُه.

(٣٣) ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ وليجتهدْ في العِفة وقمع الشهوة. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أسبابه، ويجوز أن يراد بالنكاح ما يُنكَح به، أو بالوُجدان التمكنُ منه. ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فيجدوا ما يتزوجون به. ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المكاتبةَ، وهو أن يقول الرجل لمملوكه كاتبتُك على كذا من الكتاب لأن السيد

---

(١) من الطويل.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ. وفي معناه حديث «التمسوا الرزق بالنكاح» أخرجه الثعلبي من رواية مسلم بن خالد ـ وهو ضعيف ـ وابن مردويه من رواية أبي السائب سلام بن جنادة عن أبي أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة مرفوعاً «تزوجوا النساء فإنّهنّ يأتين بالمال». قال الحاكم ـ (٢/ ١٦١) ـ تفرد به سلم وهو ثقة. وقال البزار ـ (٢/ ١٤٩ ـ كشف) ـ والدارقطني في العلل ـ وغير سلم يرويه مرسلاً. انتهى. وهو كما قال.
ـ وقد أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة ـ (في المصنف: ٤/ ١٢٧) ـ عن أبي أسامة، فلم يذكر عائشة.
ـ وكذلك أخرجه أبو داود في «المراسيل» (ص١٨٠ رقم ٢٠٣) عن أبي توبة ـ واسمه الربيع ـ عن أبي أسامة ـ ورجاله ثقات رجال الشيخين ـ.
ـ وأخرجه أبو القاسم حمزة بن يوسف في تاريخ جرجان ـ ص٢٤٢ ـ بلفظ «عليكم بالتزويج فإنه. . . الرزق» ـ من رواية الحسين بن علوان عن هشام موصولاً. والحسين متهم بالكذب ـ المجروحين. ـ (١ ـ ٢٤٤ ـ ٢٤٥) ـ. انظر «الكافي الشاف» (ص١١٩ رقم ٧٧).

(٣) التوبة: «٢٨».

كتب على نفسه عِتقَه إذا أدّى المال، أن لأنه مما يُكتب لتأجيله، أو من الكَتْب بمعنى الجمع لأن العِوَض فيه يكون مُنَجّماً بنُجوم بضمّ بعضِها إلى بعض ﴿مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ عبداً كان أو أمةً، والموصولُ بصلته مبتدأٌ خبرُه: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾ أو مفعولٌ لمضمرٍ هذا تفسيره، والفاءُ لتضمّن معنى الشرط. والأمرُ فيه للندب عند أكثر العلماء، لأن الكتابة معاوَضَةٌ تتضمن الارفاق فلا تجب كغيرها، واحتجاجُ الحنفية بإطلاقه على جواز الكتابة الحالية ضعيفٌ لأن المُطْلق لا يعمّ، مع أن العجز عن الأداء في الحال يمنع صحتها كما في السَّلَم فيما لا يوجد عند المحلّ. ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ أمانةً وقدرةً على أداء المال بالاحتراف، وقد رُوي مثله مرفوعاً[١]. وقيل صلاحاً في الدين. وقيل مالاً، وضَعْفُه ظاهرٌ لفظاً ومعنًى، وهو شرطُ الأمر فلا يلزم من عدمه عدمُ الجواز. ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ أمرٌ للموالي كما قبله بأن يبذُلوا لهم شيئاً من أموالهم، وفي معناه حطُّ شيء من مال الكتابة وهو للوجوب عند الأكثر، ويكفي أقلُّ ما يُتموّل. وعن علي رضي الله تعالى عنه يَحُطّ الربع[٢]، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الثلث[٣]. وقيل ندبٌ لهم إلى الإنفاق عليهم بعد أن يُؤتوا ويَعتِقوا، وقيل أمرٌ لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمَهم من الزكاة، ويحِلُّ للمولى وإن كان غنياً، لأنه لا يأخذه صدقةً كالدائن والمشتري، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بَريرة: «هو لها صدقةٌ ولنا هدية»[٤]. ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ إماءَكم. ﴿عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ على الزنا، كانت لعبدالله بن أُبيّ ستُّ جَوارٍ يُكرهُهن على الزنا، وضَرب عليهن الضرائبَ فشكا بعضُهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت[٥]. ﴿إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ تعففاً، شرط للإكراه فإنه لا يوجد دونه، وإن جُعل شرطاً للنهي لم يلزم من عدمه جوازُ الإكراه لجواز أن يكون ارتفاعُ النهي بامتناع المنهيِّ عنه. وإيثارُ «إنْ» على إذا لأن إرادة التحصّن من الإماء كالشاذّ النادر. ﴿لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي لهن، أو له إن تاب، والأولُ أوفقُ للظاهر ولما في مصحف ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «من بعد إكراههن لهن غفور رحيم»، ولا يرد عليه أن المُكرَهةَ غيرُ آثمة فلا حاجة إلى المغفرة لأن الإكراهَ لا ينافي المؤاخذةَ بالذات، ولذلك حَرُم على المُكْره القتلُ وأُوجِب عليه القِصاص.

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل كما في تحفة الأشراف (١٣/ ٤١٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٠/ ج١٨/ ١٢٩) عنه.

(٣) انظر «جامع البيان» (١٠/ ج١٨/ ١٣١) والمصنف لعبدالرزاق (٨/ ٣٧٧).

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٣٥٥ رقم ١٤٩٣) و(٥/ ٢٠٣ رقم ٢٥٧٨) و(٩/ ١٣٨ رقم ٥٠٩٧) و(٩/ ٤٠٤ رقم ٥٢٧٩) و(٥/ ٤١٠ رقم ٥٢٨٤) و(١٢/ ٣٩ رقم ٦٧٥١) ومسلم (٢/ ٧٥٥ رقم ١٧١ ـ ١٧٢) و(٢/ ١١٤٣ ـ ١١٤٥ رقم ١٠، ١١، ١٢، ١٤) من حديث عائشة في حديث قصة بريرة وعتقها.

(٥) أخرجه الثعلبي من طريق مقاتل بهذا وسنده إلى مقاتل في أول الكتاب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١١٩ رقم ٨٢).
وهو عند مسلم (٤/ ٢٣٢٠ رقم ٢٦/ ٢٧) من حديث جابر.
ـ وأخرجه البزار (٣/ ٦٠ ـ كشف) والطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٤ رقم ١١٧٤٧) من حديث ابن عباس.
ـ وأخرجه البزار من حديث أنس نحوه وفي إسناد حديث أنس كذاب ـ كما في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٣).

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن
شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ
لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ
وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يعني الآياتِ التي بُينت في هذه السورةِ وأوضحت فيها الأحكامُ والحدود. وقرأ ابن عامر وحفصٌ وحمزة والكسائي بالكسر في هذا وفي الطلاق[1] لأنها واضحات تصدِّقها الكتبُ المتقدمة والعقولُ المستقيمة منْ بَيَّن بمعنى تبين، أو لأنها بينت الأحكامَ والحدود. ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أو ومثلاً من أمثال مَن قبلكم أي وقصةً عجيبة مثلَ قِصصهم، وهي قصةُ عائشةَ رضي الله تعالى عنها فإنها كقصة يوسفَ ومريمَ. ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني ما وَعظ به في تلك الآيات، وتخصيصُ المتقين لأنهم المنتفعون بها، وقيل المرادُ بالآيات القرآنُ والصفاتِ المذكورةِ صفاتُه.

(٣٥) ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ النور في الأصل كيفيةٌ تُدركها الباصرة أولاً وبواسطتها سائرَ المبصَرات كالكيفية الفائضة من النيِّرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لهما، وهو بهذا المعنى لا يصح إطلاقه على الله تعالى إلا بتقدير مضاف كقولك: زيد كرَمٌ بمعنى ذو كرم، أو على تجوز إما بمعنى منوِّر السموات والأرض، وقد قرىء به فإنه تعالى نوّرهما بالكواكب وما يَفيض عنها من الأنوار أو بالملائكة والأنبياء، أو مدبّرهما من قولهم للرئيس الفائق في التدبير نورُ القوم لأنهم يهتدون به في الأمور، أو موجِدُهما فإن النورَ ظاهرٌ بذاته مظهر لغيره وأصلُ الظهور هو الوجود كما أن أصلَ الخفاء هو العدم. والله سبحانه وتعالى موجود بذاته مُوجِدٌ لما عداه، أو الذي به تُدرَك، أو يُدرِك أهلُها من حيث إنه يطلق على الباصرة لتعلقها به أو لمشاركتها له في توقف الإدراك عليه، ثم على البصيرة لأنها أقوى إدراكاً فإنها تدرِك نفسَها وغيرَها من الكليات والجزئيات الموجودات والمعدومات وتغوص في بواطنها وتتصرف فيها بالتركيب والتحليل، ثم إن هذه الإدراكاتِ ليست لذاتها وإلا لما فارقتْها فهي إذن من سبب يُفيضها عليها وهو الله سبحانه وتعالى ابتداءً أو بتوسط من الملائكة والأنبياء ولذلك سُمّوا أنواراً، ويقرب منه قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: معناه هادي مَن فيهما فهم بنوره يهتدون، وإضافته إليهما للدلالة على سعة إشراقه أو لاشتمالها على الأنوار الحسية والعقلية وقصورِ الإدراكات عليهما وعلى المتعلِّق بهما والمدلول لهما ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ صفةُ نوره العجيبةُ الشأن، وإضافتُه إلى ضميره سبحانه وتعالى دليلٌ على أن إطلاقه عليه لم يكن على ظاهره ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ كصفة مشكاة، وهي الكُوّة الغيرُ النافذة. وقرأ الكسائي برواية . . . .

---

(١) الطلاق: «١١».

الدوري[(١)] بالإمالة. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ سراجٌ ضخم ثاقب، وقيل المشكاة الأُنبوبةُ في وسط القنديل والمصباحُ الفتيلة المشتعلة ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ في قنديل من الزجاج ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ مضيء متلألىء كالزُّهرة في صفائه وزُهرته، منسوبٌ إلى الدَّرأ، وفُعيّل كمُريّق من الدرء فإنه يدفع الظلامَ بضوئه، أو بعضُ ضوئه بعضاً من لمعانه إلا أنه قُلبت همزتُه ياءً، ويدل عليه قراءة حمزة وأبي بكر على الأصل، وقراءة أبي عمرو والكسائي دِريءٌ كشِريب وقد قرىء به مقلوباً[(٢)]. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي ابتداءُ ثقوب المصباح من شجرة الزيتون المتكاثر نفعُه بأن رويَت ذُبالتهُ بزَيتها، وفي إبهام الشجرة ووصفِها بالبركة ثم إبدالِ الزيتونة عنها تفخيمٌ لشأنها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالياء والبناء للمفعول من أَوْقد، وحمزةُ والكسائي وأبو بكر بالتاء كذلك على إسناده إلى الزجاجة بحذف المضاف، وقرىء تَوَقّدُ من تتوقد، ويَوَقّدُ بحذف التاء لاجتماع زيادتين وهو غريب ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تقع الشمس عليها حيناً بعد حين، بل بحيث تقع عليها طولَ النهار كالتي تكون على قُلّة أو صحراءَ واسعةٍ، فإن ثمرتها تكون أنضجَ وزيتُها أصفى، أو لا نابتةٍ في شرق المعمورة وغربِها بل في وسطها وهو الشامُ فإن زيتونه أجودُ الزيتون، أو لا في مضحى تشرق الشمسُ عليها دائماً فتحرِقها أو في مَقْنأة تغيب عنها دائماً فتتركها نيئاً وفي الحديث: «لا خير في شجرة ولا نبات في مقْنأة[(٣)] ولا خير فيهما في مضحى»[(٤)] ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد يضيء بنفسه من غير نار لتلألُئه وفَرْط وَبيصِه. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ نور متضاعف فإن نورَ المصباح زاد في إنارته صفاءُ الزيت وزُهرةُ القِنديل وضبطُ المِشكاة لأشعته. وقد ذكر في معنى التمثيل وجوه، الأول: أنه تمثيل للهدى الذي دل عليه الآياتُ المبينات في جلاء مدلولها وظهورِ ما تضمنته من الهدى بالمشكاة المنعوتة، أو تشبيهٌ للهدى من حيث إنه محفوفٌ بظلمات أوهام الناس وخيالاتِهم بالمصباح، وإنما وليَ الكافُ المشكاةَ لاشتمالها عليه وتشبيهُهُ به أوفقُ من تشبيهه بالشمس، أو تمثيلٌ لما نوّر الله به قلبَ المؤمن من المعارف والعلوم بنور المشكاة المنبثّ فيها من مصباحها، ويؤيده قراءة أبيّ: مثلُ نورِ المؤمن، أو تمثيلٌ لِما مَنح الله به عبادَه من القُوى الدراكة الخمسِ المترتبة التي منوطٌ بها المعاشُ والمَعاد وهي: الحسّاسةُ التي تُدرك بها المحسوساتُ بالحواس الخمس، والخَيالِيّةُ التي تحفظ صورَ تلك المحسوساتِ لتعرِضَها على القوة العقلية متى شاءت، والعاقلة التي تدرك الحقائقَ الكلية والمفكّرة وهي التي تؤلف المعقولات لتستنتج منها عِلمَ ما لم تعلم، والقوةُ القدسية التي تتجلى فيها لوائحُ الغيب وأسرارُ الملكوت المختصةُ بالأنبياء والأولياء المعنية بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ

---

(١) الدوري: هو حفص بن عمر بن عبدالعزيز بن صهبان بن عدي بن أبو عمر الدوري صهبان ويقال صهيب أبو عمر الدوري الأزدي البغدادي النحوي الدوري الضرير نزيل سامراء إمام القراءة وشيخ الناس في زمانه ثقة ثبت كبير ضابط أول من جمع القراءات ونسبته إلى الدور موضع ببغداد ومحلة بالجانب الشرقي.

قال الأهوازي رحل الدوري في طلب القراءات وقرأ سائر الحروف السبعة وبالشواذ. [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص٢٥٥].

(٢) قوله قرىء به مقلوباً أي (دئري).

(٣) المكان الذي لا تطلع عليه الشمس.

(٤) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١١٩ رقم ٨٥): لم أجده.

﴿عِبَادِنَا﴾[1] بالأشياء الخمسة المذكورة في الآية وهي: المشكاة، والزجاجة، والمصباح، والشجرة، والزيت، فإن الحساسةَ كالمشكاة لأن محلها كالكُوَى ووجهُها إلى الظاهر لا تُدرك ما وراءها، وإضاءتُها بالمعقولات لا بالذات، والخياليةَ كالزجاجة في قبول صور المُدرَكات من الجوانب وضبطِها للأنوار العقلية وإنارتها بما تشمل عليه من المعقولات، والعاقلةَ كالمصباحِ لإضاءتها بالإدراكات الكلية والمعارفِ الإلهية، والمفكّرة كالشجرة المباركة لتأديتها إلى ثمرات لا نهايةَ لها الزيتونةَ المثمرةَ بالزيت الذي هو مادةُ المصابيحِ التي لا تكون شرقيةً ولا غربية لتجرُّدها عن اللواحق الجسمية، أو لوقوعها بين الصور والمعاني متصرفةً في القبيلين منتفعةً من الجانبين، والقوةَ القدسية كالزيت فإنها لصفائها وشدةِ ذَكائِها تكاد تضيء بالمعارف من غير تفكر ولا تعلم، أو تمثيلٌ للقوة العقلية في مراتبها بذلك فإنها في بدء أمرها خاليةٌ عن العلوم مستعدةٌ لقَبولها كالمشكاة؛ ثم تنتقش بالعلوم الضرورية بتوسط إحساس الجزئياتِ بحيث تتمكن من تحصيل النظريات فتصير كالزجاجة متلألئةً في نفسها قابلةً للأنوار، وذلك التمكنُ إن كان بفكر واجتهاد فكالشجرة الزيتونة وإن كان بالحدْس فكالزيت وإن كان بقوة قدسية فكالتي يكاد زيتها يضيء لأنها تكاد تعلم ولو لم تتصل بملك الوحْي والإلهامِ الذي مثلُه النارُ من حيث إن العقولَ تشتعل عنه، ثم إذا حصلت لها العلومُ بحيث تتمكن من استحضارها متى شاءت كانت كالمصباح، فإذا استحضرتها كانت نوراً على نور. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ لهذا النورِ الثاقب ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فإن الأسبابَ دون مشيئته لاغيةٌ إذ بها تمامُها ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ إدناءً للمعقول من المحسوس توضيحاً وبياناً ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ معقولاً كان أو محسوساً ظاهراً كان أو خفياً، وفيه وعدٌ ووعيدٌ لمن تدبرها وإن لم يكترث بها.

(٣٦) ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ متعلّقٌ بما قبله أي كمشكاة في بعض بيوت، أو توقد في بيوت فيكون تقييداً للممثَّل به بما يكون تحبيراً ومبالغةً فيه فإن قناديلَ المساجد تكون أعظمَ، أو تمثيلاً لصلاة المؤمنين أو أبدانِهم بالمساجد، ولا ينافي جمعُ البيوت وحدةَ المشكاة إذ المرادُ بها مالَه هذا الوصفُ بلا اعتبار وَحدةٍ ولا كثرة. أو بما بعده[2] وهو يسبح، وفيها تكرير مؤكد، لا بيُذكرَ لأنه من صلة أن فلا يعمل فيما قبله. أو بمحذوف مثل سبحوا في بيوت، والمرادُ بها المساجدُ لأن الصفة تلائمها. وقيل المساجدُ الثلاثة والتنكيرُ للتعظيم ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ بالبناء أو التعظيم. ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ عامٌّ فيما يتضمن ذكرَه حتى المذاكرةَ في أفعاله والمباحثةَ في أحكامه. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ ينزهونه أي يُصلّون له فيها بالغدوات والعشيات، والغُدوّ مصدرٌ أطلق للوقت، ولذلك حسُن اقترانُه بالآصال وهو جمع أصيل. وقرىء والإيصال وهو الدخول في الأصيل، وقرأ ابن عامر وأبو بكر يُسبَّحُ بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه، وقرىء تسبّح بالتاء مكسوراً لتأنيث الجمع، ومفتوحاً على إسناده إلى أوقات الغدو.

---

(١) الشورى: «٥٢».

(٢) قوله: أو بما بعده. . و. . أو بمحذوف هو معطوف على قوله: متعلق بما قبله.

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ
وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ
حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾

(٣٧) ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ لا تشغلهم معاملةٌ رابحة ﴿وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مبالغةٌ بالتعميم بعد التخصيص إن أريد به مُطلقُ المعاوضة، أو بأفراد ما هو الأهمُّ من قسمي التجارة فإن الربح يتحقق بالبيع ويُتوقع بالشراء. وقيل المرادُ بالتجارة الشراءُ فإنه أصلُها ومبدؤها. وقيل الجَلَب لأنه الغالب فيها ومنه يقال تجَر في كذا إذا جلبه، وفيه إيماءٌ بأنهم تجار[1]. ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عُوّض فيه الإضافةُ من التاء المعوَّضة عن العين[2] الساقطةِ بالإعلال كقوله:

وَأَخلَفُوكَ عِدَ الأمرِ الَّذِي وَعَدُوا[3]

﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ما يجب إخراجُه من المال للمستحقين ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ مع ما هم عليه من الذكر والطاعة ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ تضطرب وتتغير من الهول، أو تتقلب أحوالُها فتفقه القلوبُ ما لم تكن تفقه وتبصر الأبصارُ ما لم تكن تبصره، أو تتقلب القلوبُ مع توقّع النجاةِ وخوف الهلاك، والأبصارُ من أي ناحية يؤخذ بهم ويؤتى بكتبهم.

(٣٨) ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ متعلقٌ بيسبح أو لا تلهيهم أو يخافون ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ أحسنَ جزاءِ ما عملوا الموعودَ لهم من الجنة ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أشياءَ لم يعِدْهم بها على أعمالهم ولم تخطُر ببالهم ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تقريرٌ للزيادة وتنبيهٌ على كمال القدرة ونفاذِ المشيئة وسَعة الإحسان.

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ والذين كفروا حالُهم على ضد ذلك، فإن أعمالَهم التي يحسبونها صالحةً نافعةً عند الله يجدونها لاغيةً مخيِّبةً في العاقبة كالسراب، وهو ما يُرى في الفلاة من لَمعان الشمس عليها وقتَ الظهيرة فيُظنّ أنه ماءٌ يسرُب أي يجري، والقِيعة بمعنى القاع وهو الأرضُ الخالية عن النبات وغيرُ المستوية، وقيل جمعُه كجار وجِيرة. وقرىء بقِيعات كديمات في ديمة ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ أي العطشانُ، وتخصيصُه لتشبيه الكافر به في شدة الخَيبة عند مسيس الحاجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ جاء ما توهّمه ماءً، أو موضعَه ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ مما ظنه ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ عقابه أو زبانيتَه أو وجده محاسباً إياه ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ استعراضاً أو مجازاةً ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لا يشغله

---

(١) وتخصيص التجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها.
وإفراد البيع بالذكر ـ مع اندراجه تحت التجارة للإيذان بإنافته على سائر أنواعها لأن ربحه متيقن وربح ما عداه متوقع ـ (س٦/١٧٩).

(٢) وهي الواو في الأصل (أقوام الصلاة) حذفت الواو وعوض عنها التاء (إقامة) وقوله عن الأمر أي عدة الأمر بمعنى وحده.

(٣) من البسيط.

حسابٌ عن حساب. روي أنها نزلت في عُتبةَ بنِ ربيعةَ بنِ أميةَ، تعبّد في الجاهلية والتمس الدِّين، فلما جاء الإسلامُ كفر(١).

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

(٤٠) ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطف على كسراب. وأو للتخيير فإن أعمالهم لكونها لاغيةً لا منفعةَ لها كالسراب ولكونها خاليةً عن نور الحق كالظلمات المتراكمةِ من لُجّ البحر والأمواج والسحاب، أو للتنويع فإن أعمالَهم إن كانت حسنة فكالسراب وإن كانت قبيحةً فكالظلمات، أو للتقسيم باعتبار وقتين فإنها كالظلمات في الدنيا وكالسراب في الآخرة ﴿فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ ذي لُجّ أي عميق منسوب إلى اللُّج وهو معظمُ الماء ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ يغشى البحرَ ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أي أمواجٍ مترادفةٌ متراكمة ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ من فوق الموج الثاني ﴿سَحَابٌ﴾ غطى النجومَ وحجب أنوارها، والجملةُ صفة أخرى للبحر ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ أي هذه ظلماتٌ ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ وقرأ ابن كثير ظلماتٍ بالجر على إبدالها من الأولى أو بإضافة السحاب إليها في رواية البزّي(٢) ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ وهي أقربُ ما يُرى إليه ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لم يقرَبْ أن يراها فضلاً أن يراها كقول ذي الرمة(٣):

إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ المُحِبِّينَ لَمْ يَكَدْ ... رسِيسُ الهَوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ

والضمائرُ للواقع في البحر وإن لم يجرِ ذكرُه لدلالة المعنى عليه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ ومن لم يقدِّر له الهدايةَ لم يوفقه لأسبابها. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ خلافَ الموفَّق الذي له نور على نور.

(٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلمْ علماً يشبه المشاهدةَ في اليقين والوثاقةِ بالوحي أو الاستدلال ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينزِّه ذاتَه عن كل نقص وآفةٍ أهلُ السموات والأرض، ومَن لتغليب العقلاء، أو الملائكةُ والثقلانِ بما يدل عليه من مقال أو دلالةِ حال ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ على الأول تخصيصٌ لما فيها من الصنع الظاهر والدليلِ الباهر ولذلك قيدها بقوله ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ فإن إعطاءَ الأجرام الثقيلةِ ما به تقوَى على الوقوف في الجو باسطةً أجنحتَها بما فيها من القبض والبسط حجةٌ قاطعة على كمال قدرةِ الصانع تعالى ولُطفِ تدبيره ﴿كُلٌّ﴾ كل واحد مما ذكر أو من الطير ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أي قد علم

---

(١) قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٨٢) قال مقاتل: نزلت في شيبة بن ربيعة بن عبدشمس.

(٢) البزي: أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن نافع بن أبي بزة.
وقال الأهوازي أبو بزة الذي ينسب إليه البزي اسمه بشار فارس من أهل همذان أسلم على يد السائب بن أبي السائب المخزومي والبزة الشدة ومعنى أبو بزة أبو شدة ويقال إن نافعاً هو أبو بزة الإمام أبو الحسن البزي المكي مقرىء مكة ومؤذن الحرام ولد سنة سبعين ومائة استذا محقق ضابط ومتقن [انظر غاية النهاية في طبقات القراء ج١ ص١١٩].

(٣) ذي الرمة: سبق ترجمته في سورة المؤمنون.

الله دعاءَه وتنزيهَه اختياراً أو طبعاً لقوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أو علِم كلٌّ على تشبيه حالِه في الدِلالة على الحق والميل إلى النفع على وجه يخُصه بحال مَن علم ذلك مع أنه لا يبعُد أن يُلهم الله تعالى الطيرَ دعاءً وتسبيحاً كما ألهمها علوماً دقيقة في أسباب تعيُّشِها لا تكاد تهتدي إليها العقلاء.

وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾

(٤٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فإنه الخالقُ لهما وما فيهما من الذوات والصفات والأفعال من حيث إنها ممكنةٌ واجبةُ الانتهاء إلى الواجب. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ مرجعُ الجميع.

(٤٣) ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ يسوقه، ومنه البضاعةُ المُزْجاة فإنه يُزْجيها كلُّ أحد ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ﴾ بأن يكون قَزَعاً فيَضُم بعضَه إلى بعض، وبهذا الاعتبار صح (بينه) إذ المعنى بين أجزائه. وقرأ نافع برواية ورش يولّف غيرَ مهموز. ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ متراكماً بعضُه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾ المطرَ ﴿يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ من فُتوقه، جمع خَلل كجبال في جبل. وقرىء من خِلله. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الغمام، وكلُّ ما علاك فهو سماء ﴿مِن جِبَالٖ فِيهَا﴾ من قِطع عظامٍ تشبه الجبال في عِظَمها أو جمودها ﴿مِنۢ بَرَدٖ﴾ بيان للجبال، والمفعول محذوف أي ينزل مبتدأً من السماء من جبال فيها مِن بَرَد بَرداً، ويجوز أن تكون مِنْ الثانية أو الثالثة للتبعيض واقعةً موقع المفعول، وقيل المراد بالسماء المِظلة، وفيها جبالٌ من برد كما في الأرض جبالٌ من حجر، وليس في العقل قاطعٌ يمنعه، والمشهورُ أن الأبخرةَ إذا تصاعدت ولم تحلّلها حرارةٌ فبلغت الطبقةَ الباردة من الهواء وقوِيَ البرْدُ هناك اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتدَّ البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها نزل ثلجاً وإلا نزل بَرَداً، وقد يبرد الهواء برداً مفرِطاً فينقبض وينعقد سحاباً ينزل منه المطر أو الثلج، وكل ذلك لا بد أن يستند إلى إرادة الواجب الحكيم لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالّها وأوقاتِها، وإليها أشار بقوله ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾ والضمير للبرَد ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ ضوء برقه. وقرىء بالمد بمعنى العلو، وبإدغام الدال في السين، وبُرَقِه بضم الباء وفتح الراء وهو جمع بُرقة وهي المقدار من البرْق كالغرفة، وبضمها للإتباع. ﴿يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ بأبصار الناظرين إليه من فرط الإضاءة[1]. وذلك أقوى دليل على كمال قدرته من حيث إنه توليد للضد من الضد. وقرىء يُذْهِبُ على زيادة الباء.

(٤٤) ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادةِ الآخر، أو بتغيير أحوالِهما بالحر والبرد والظُلْمة والنور أو بما يعم ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما تقدم ذكرُه ﴿لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ لَدِلالةً

---

١) وفي إطلاق الأبصار مزيد تهويل لأمره، وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها ولو عند الإغماض (س٦/ ١٨٥).

على وجود الصانع القديم، وكمالِ قدرته وإحاطةِ علمه ونفاذِ مشيئته وتنزّهِه على الحاجة وما يُفضي إليها لمن يرجع إلى بصيرة.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾

(٤٥) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ﴾ حيوانٍ يدِبّ على الأرض. وقرأ حمزة والكسائي خالقُ كلِّ دابة بالإضافة ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ هو جزءُ مادته، أو ماءٍ مخصوص هو النطفةُ فيكون تنزيلاً للغالب منزلةَ الكل إذ من الحيوانات ما يتولد عن النطفة، وقيل من ماء متعلقٌ بدابة وليس بصلة لخلق ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالحية وإنما سُمّي الزحفُ مشياً على الاستعارة أو المشاكلة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنس والطير. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالنَّعم والوحش، ويندرج فيه ماله أكثرُ من أربعٍ كالعناكب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع، وتذكيرُ الضمير لتغليب العقلاء، والتعبيرُ عن الأصناف ليوافق التفصيلُ الجملة، والترتيبُ لتقديم ما هو أعرفُ في القدرة ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر بسيطاً ومركباً على اختلاف الصور والأعضاء والهيئاتِ والحركات والطبائعِ والقوى والأفعالِ مع اتحاد العنصر بمقتضى مشيئته[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء.

(٤٦) ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ للحقائق بأنواع الدلائل ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ بالتوفيق للنظر فيها والتدبرِ لمعانيها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو دينُ الإسلام الموصلُ إلى درْك الحق والفوزِ بالجنة.

(٤٧) ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ نزلت في بشر المنافق، خاصم يهودياً فدعاه إلى كعب بن الأشرف وهو يدعوه إلى النبي ﷺ[2]. وقيل في مغيرةَ بنِ وائل خاصم علياً رضي الله عنه في أرض فأبى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ[3]. ﴿وَأَطَعْنَا﴾ أي وأطعناهما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ بالامتناع عن قبول حكمه ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد قولهم هذا ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى القائلين بأسرهم فيكون إعلاماً من الله تعالى بأن جميعَهم وإن آمنوا بلسانهم لم تؤمن قلوبُهم، أو إلى الفريق منهم، وسلْبُ الإيمان عنهم لتوليهم. والتعريفُ فيه للدِلالة على أنهم ليسوا بالمؤمنين الذين عرَفْتَهم وهم المخلصون في الإيمان والثابتون عليه.

(٤٨) ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليحكم النبي ﷺ فإنه الحاكم ظاهراً والمدعوُّ إليه،

---

(١) إظهار اسم الجلالة «الله» في موضع الإضمار لتفخيم شأن الخلق المذكور، والإيذان بأنه من أحكام الألوهية (س٦/ ١٨٦).

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٢٧.

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/ ٢٩٣).

وذِكْرُ الله لتعظيمه والدَّلالة على أن حكمه ﷺ في الحقيقة حكمُ الله تعالى ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فاجأ فريقٌ منهم الإعراضَ إذا كان الحقُّ عليهم لعلمهم بأنك لا تحكم لهم، وهو شرحٌ للتولي ومبالغة فيه.

وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

(٤٩) ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ﴾ أي الحكمُ لا عليهم ﴿يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لعلمهم بأنه يحكم لهم، وإليه صلةٌ ليأتوا أو لمذعنين، وتقديمُه للاختصاص.

(٥٠) ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر أو ميلٌ إلى الظلم ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ بأن رأوا منك تُهمةً فزال يقينهم وثقتهم بك. ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ في الحكومة ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إضرابٌ عن القِسمين الأخيرين لتحقيق القسم الأولُ، ووجهُ التقسيم أن امتناعَهم إما لخلل فيهم أو في الحاكم، والثاني إما أن يكون محققاً عندهم أو متوقعاً وكلاهما باطل، لأن منصِبَ نبوته وفرْطَ أمانته ﷺ يمنعه فتعين الأول، وظلمُهم يعم خَللَ عقيدتهم وميلَ نفوسهم إلى الحيف، والفصلُ لنفي ذلك عن غيرهم سيما المدعوُّ إلى حكمه.

(٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ على عادته تعالى في اتباع ذكر المُحق المبطل، والتنبيهِ على ما ينبغي بعد إنكاره لما لا ينبغي، وقرىء قولُ بالرفع، وليُحكَمَ على البناء للمفعول، وإسنادُه إلى ضمير مصدرِه على معنى ليفعل الحكم.

(٥٢) ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يأمُرانه، أو في الفرائض والسنن ﴿وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ على ما صدر عنه من الذنوب ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقِيَ من عمره، وقرأ يعقوبُ وقالونُ عن نافع بلا ياء[(١)]، وأبو بكر وأبو عمرو بسكون الهاء[(٢)]، وحفص بسكون القاف فشبه تَقْهِ بكتْف وخَفّف، والهاء ساكنة في الوقف بالاتفاق. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

(٥٣) ﴿۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إنكارٌ للامتناع عن حكمه ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ الخروجَ عن ديارهم وأموالهم ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ جواب لأقسموا على الحكاية. ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ على الكذب. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ أي المطلوبُ منكم طاعةٌ معروفة لا اليمينُ على الطاعة النفاقية المنكَرة، أو طاعة معروفة أمثلُ منها، أو لتكن طاعةٌ. وقرئت بالنصب على: أطيعوا طاعة[(٣)]. ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه سرائرُكم.

---

(١) قوله بلا ياء أي بلا إشباع للهاء بالياء، مع كسر القاف.

(٢) مع كسر القاف أيضاً.

(٣) التعبير عن الطاعة بأنها معروفة للإيذان بأن كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد (س٦/ ١٨٩).

قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٤) ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أمر بتبليغ ما خاطبهم الله به على الحكاية مبالغةً في تبكيتهم[١] ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على محمد ﷺ. ﴿مَا حُمِّلَ﴾ من التبليغ. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ من الامتثال[٢]. ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ في حكمه. ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ إلى الحق ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ التبليغُ الموضحُ لما كُلّفتم به، وقد أدىٰ، وإنما بقي ما حمّلتم فإن أدّيتم فلكم وإن توليتم فعليكم.

(٥٥) ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ خطاب للرسول ﷺ وللأمة، أوْ له ولمن معه، ومِن للبيان[٣] ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ليجعلنّهم خلفاءَ متصرفين في الأرض تصرفَ الملوك في مماليكهم. وهو جوابُ قسم مضمر تقديره وعدهم الله وأقسم ليستخلفنهم، أو الوعدُ في تحققه منزّلٌ منزلةَ القسم. ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني بني إسرائيلَ استخلفهم في مصرَ والشام بعد الجبابرة. وقرأ أبو بكر بضم التاء وكسر اللام، وإذا ابتدأ ضمّ الألفَ والباقون بفتحهما وإذا ابتدؤوا كسروا الألف. ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وهو الإسلام بالتقوية والتثبيت[٤]. ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ من الأعداء. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف. ﴿أَمْنًا﴾ منهم. وكان رسولُ الله ﷺ وأصحابُه مكثوا بمكةَ عشرَ سنين خائفين، ثم هاجروا إلى المدينة وكانوا يُصبحون في السلاح ويُمسون فيه حتى أنجز الله وعده فأظهرهم على العرب كلِّهم وفتح لهم بلاد الشرق والغرب، وفيه دليلٌ على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به وخلافةِ الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الموعودُ والموعود عليه لغيرهم بالإجماع. وقيل الخوفُ من العذاب والأمنُ منه في الآخرة. ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ حال من الذين لتقييد الوعدِ بالثبات على التوحيد، أو استئنافٌ ببيان المقتضي للاستخلاف والأمن. ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ حال من الواو أي يعبدونني غيرَ مشركين. ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ومن ارتد أو كفر هذه النعمة. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد الوعد أو حصولِ الخلافة. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح مثل هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمةَ العظيمة.

---

(١) كرر الأمر بالقول لإبراز كمال العناية به، والإشعار باختلافهما من حيث إن المقول في الأول نهي بطريق الرد والتقريع وفي الثاني أمر بطريق التكليف والتشريع (س٦/ ١٨٩).

(٢) ولعل التعبير عنه بالتحميل للإشعار بثقله وكونه مؤنة باقية في عهدتهم بعد (س٦/ ١٨٩).

(٣) توسيط الظرف (منكم) بين المعطوفين لإظهار أصالة الإيمان وعراقته في استتباع الآثار والأحكام، وللإيذان بكونه أول ما يطلب منهم وأهم ما يجب عليهم (س٦/ ١٩٠).

(٤) وتقديم (لهم) على المفعول الصريح (دينهم) للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقاً إليه وترغيباً لهم في قبوله عند وروده (س٦/ ١٩١).

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ في سائر ما أمركم به، ولا يبعُد عطفُ ذلك على أطيعوا الله فإن الفاصل وعدٌ على المأمور به، فيكون تكريرُ الأمر بطاعة الرسول ﷺ للتأكيد وتعليقِ الرحمة بها أو بالمندرجة هي فيه بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كما علق به الهدى.

(٥٧) ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا تحسبن يا محمد الكفارَ معجزين لله عن إدراكهم وإهلاكهم، و(في الأرض) صلةُ معجزين. وقرأ ابن عامر وحمزةُ بالياء على أن الضمير فيه لمحمد ﷺ، والمعنى كما هو في القراءة بالتاء، أو الذين كفروا فاعل، والمعنى ولا يحسبن الكفارُ في الأرض أحداً معجزاً لله، فيكون معجزين في الأرض مفعوليه، أو لا يحسبونهم معجزين، فحُذف المفعولُ الأول لأن الفاعلَ والمفعولين لشيء واحد فاكتُفيَ بذكر اثنين عن الثالث. ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ عطف عليه من حيث المعنى كأنه قيل: الذين كفروا ليسوا بمعجزين ومأواهم النار، لأن المقصود من النهي عن الحسبان تحقيقُ نفي الإعجاز. ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ المأوى الذي يصيرون إليه.

(٥٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ رجوع إلى تتمة الأحكام السالفةِ بعد الفراغ من الإلهيات الدالة على وجوب الطاعة فيما سلف من الأحكام وغيرِها والوعدِ عليها والوعيدِ على الإعراض عنها. والمرادُ به خطابُ الرجال والنساء، غُلّب فيه الرجال، لما روي أن غلام أسماءَ بنتِ أبي مرثد دخل عليها في وقت كرِهته فنزلت[١]. وقيل أرسل رسول الله ﷺ مدلَج بنَ عمرٍو الأنصاريَّ[٢] وكان غلاماً وقت الظهيرة ليدعوَ عمر، فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لوددت أن الله عز وجل نهىٰ آباءنا وأبناءنا وخدَمَنا أن لا يدخُلوا هذه الساعاتِ علينا إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فوجده وقد أنزلت هذه الآية[٣]. ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ والصبيانُ الذين لم

---

١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٢٩ عن مقاتل.

٢) هو مدلج الأنصاري بعثه النبي ﷺ في شغل إلى عمر إن صح ذلك. (تجريد أسماء الصحابة) للذهبي (٢/٦٦ رقم ٧٢٤).

٣) أخرجه ابن منده من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ كما في «الإصابة» =

يبلُغوا من الأحرار، فعبر عن البلوغ بالاحتلام لأنه أقوى دلائله. ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ﴾ في اليوم والليلة. مرة ﴿مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ لأنه وقتُ القيام من المضاجع وطرحِ ثياب النوم ولبسِ ثياب اليقظة. ومحلُّه النصبُ بدلاً من ثلاث مرات، أو الرفعُ خبراً لمحذوف أي هي من قبل صلاة الفجر. ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ أي ثيابكم لليقظة للقيلولة. ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ بيان للحين[1]. ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ﴾ لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف. ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ﴾ أي هي ثلاثُ أوقات يختل فيها تستُّركم، ويجوز أن يكون مبتدأ وخبرُه ما بعده، وأصلُ العورة الخلل ومنها أعورُ المكان ورجل أعور. وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي ثلاثَ بالنصب بدلاً من ثلاث مرات ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ﴾ بعد هذه الأوقاتِ في ترك الاستئذان. وليس فيه ما ينافي آيةَ الاستئذان فينسخها لأنه في الصبيان ومماليكِ المدخول عليه، وتلك في الأحرار البالغين. ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ أي هم طوافون، استئنافٌ ببيان العذر المرخِّصِ في ترك الاستئذانِ وهو المخالطةُ وكثرةُ المداخلة. وفيه دليلٌ على تعليل الأحكام، وكذا في الفرق بين الأوقاتِ الثلاثة وغيرِها بأنها عورات. ﴿بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ بعضُكم طائفٌ على بعض أو يطوف بعضكم على بعض. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾ أي الأحكام. ﴿وَٱللَّهُ﴾ بأحوالكم. ﴿حَكِيمٞ﴾ فيما شرع لكم.

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ الذين بلغوا من قبلهم في الأوقات كلِّها، واستدل به من أوجب استئذانَ العبد البالغ على سيدته، وجوابُه أن المرادَ بهم المعهودون الذين جُعلوا قسيماً للمماليك فلا يندرجون فيهم. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في الأمر بالاستئذان.

(٦٠) ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ العجائزُ اللاتي قعَدن عن الحيض والحمل. ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ لا يطمعن فيه لكِبَرهن. ﴿فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي الثيابَ الظاهرة كالجِلباب، والفاء فيه لأن اللام في القواعد بمعنى اللاتي أو لوصفها بها. ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ﴾ غيرَ مظهرات زينةً مما أُمرن بإخفائه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[2]. وأصلُ التبرج التكلّفُ في إظهار ما يخفى من قولهم: سفينةٌ بارجة لا غطاءَ عليها، والبَرَج سعةُ العين بحيث يُرى بياضُها محيطاً بسوادها كلِّه لا يغيب منه شيء، إلا أنه خُصّ بتكشف المرأة زينتَها ومحاسنَها للرجال. ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ من الوضع لأنه أبعدُ من التهمة. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالتهن للرجال. ﴿عَلِيمٞ﴾ بمقصودهن.

= (٣/ ٣٩٥) ـ. وذكره الواحدي في «أسباب النزول» ص٣٢٩ عن ابن عباس.
وهو حديث باطل إسناده مظلم.

(١) والتصريح بوضع الثياب في هذا الوقت دون الأول (قبل الفجر). والآخر (بعد العشاء) لقلة زمان القيلولة ولكثرة الورود والصدور، فهو مظنة لظهور الأحوال. أما الوقتين الآخرين فالتجرد فيه أمر معروف ولا يحتاج للتصريح به (س٦/ ١٩٣).

(٢) النور: «٣١».

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ
بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ
بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا
مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ
فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ
لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ
أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا
ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾

(٦١) ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ نفيٌ لما كانوا يتحرجون من مؤاكلة الأصِحّاء حذراً من استقذارهم، أو أكلِهم من بيت من يدفع إليهم المفتاحَ ويُبيح لهم التبسُّطَ فيه إذا خرج إلى الغزو وخلفهم على المنازل مخافةَ أن لا يكون ذلك من طِيب قلب، أو مِن إجابةِ من دعَوهم إلى بيوت آبائهم وأولادِهم وأقاربهم فيُطعمونهم كراهةَ أن يكونوا كَلًّا عليهم، وهذا إنما يكون إذا علِم رضا صاحبِ البيت بإذن أو قرينة، أو كان في أول الإسلام ثم نسخ بنحو قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾[(١)]. وقيل نفيٌ للحرج عنهم في القعود عن الجهاد، وهو لا يلائم ما قبله ولا ما بعده. ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ من البيوت التي فيها أزواجُكم وعيالُكم، فيدخل فيها بيوتُ الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»[(٢)]، وقولِه عليه الصلاة والسلام: «إن أطيب ما يأكل المؤمنُ من كسبه، وإن ولده مِن كسبه»[(٣)]. ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

---

(١) الأحزاب: «٥٣».

(٢) أخرجه ابن ماجة (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩١) من حديث جابر.
ـ قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٢٥ رقم ٨١١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط البخاري وله شاهد من حديث عائشة، رواه أصحاب السنن الأربعة وابن حبان في صحيحه. ورواه أبو داود ـ (٣/ ٨٠١ رقم ٣٥٣٠) ـ وابن ماجة ـ (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩٢) ـ من حديث عبدالله بن عمرو» هـ.
ووافقه الألباني على تصحيحه في الإرواء رقم (٨٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣/ ٨٠٠، ٨٠١ رقم ٣٥٢٨، ٣٥٢٩) والترمذي (٣/ ٦٣٩ رقم ١٣٥٨) والنسائي (٧/ ٢٤٠ ـ ٢٤١ رقم ٤٤٤٩ و٤٤٥٠) وابن ماجة (٢/ ٧٦٩ رقم ٢٢٩٠) وابن حبان (ص٢٦٨ رقم ١٠٩١ ـ موارد) والحاكم (٢/ ٤٦) وعبدالرزاق في «المصنف» (٩/ ١٣٣) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٥٨) وأحمد في المسند (٦/ ٣١، ٤١، ١٢٧، ١٦٢، ١٧٣، ١٩٣، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٠) والدارمي (٢/ ٢٤٧) والطيالسي في مسنده (ص٢٢١).
كلهم من طريق عمارة بن عمير عن عمته عن عائشة. إلاّ أن في إحدى روايتي أبي داود (رقم ٣٥٢٩) وأحمد (٦/ ٢٠٢) عن أمه بدل عمته. وفي إحدى روايتي ابن أبي شيبة. والحاكم (أبيه) وكان في أصل المصنف (أبيه) فجعله المحقق (أمه) من السنن الكبرى. قال الألباني في الإرواء (٣/ ٣٣٠): =

﴿أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وهو ما يكون تحت أيديكم وتصرفكم من ضَيعة أو ماشيةٍ وكالةً أو حفظاً، وقيل بيوت المماليك. والمفاتح جمع مَفتَح وهو ما يفتح به، وقرىء مِفْتاحَه. ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أو بيوت صديقِكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسرُّ به، وهو يقع على الواحد والجمع كالخليط، هذا كله إنما يكون إذا علم رضا صاحبِ البيت بإذن أو قرينة، ولذلك خصص هؤلاء فإنه يعتاد التبسّطُ بينهم، أو كان ذلك في أول الإسلام فنسخ فلا احتجاج للحنفية به على أن لا قطعَ بسرقة مال المحرَم. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ مجتمعين أو متفرقين. نزلت في بني ليث بن عمرو من كِنانةَ كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده[(١)]، أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه[(٢)]، أو في قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطبائع في القذارة والنَّهمة[(٣)]. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ من هذه البيوت ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ على أهلها الذين هم منكم دينا وقرابة. ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثابتةً بأمره مشروعة من لَدُنه، ويجوز أن تكون من صلةً للتحية فإنه طلبُ الحياة وهي من عنده تعالى، وانتصابُها بالمصدر لأنها بمعنى التسليم. ﴿مُبَٰرَكَةً﴾ لأنها يرجى بها زيادةُ الخير والثواب. ﴿طَيِّبَةً﴾ تطيب بها نفسُ المستمع. وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال لي: «متى لقِيت أحداً من أمتي فسلم عليه يطُلْ عمرُك، وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثُر خيرُ بيتك، وصلِّ صلاة الضحى فإنها صلاةُ الأبرار الأوابين»[(٤)]. ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كرره ثلاثاً لمزيد التأكيد وتفخيم الأحكام المختتمة به، وفصل الأولين بما هوالمقتضي لذلك وهذا بما هو المقصود منه فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي الحقَّ والخيرَ في الأمور.

(٦٢) ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الكاملون في الإيمان. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ من صميم قلوبهم. ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كالجمعة والأعياد والحروبِ والمشاورة في الأمور، ووصفُ الأمر بالجمع للمبالغة. وقرىء أمرِ جميع ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ يستأذنوا رسول الله ﷺ فيأذنَ لهم، واعتبارُه في كمال الإيمان لأنه كالمِصداق لصحته والمميزُ للمخلِص فيه عن المنافق فإن ديدَنَه التسللُ والفرار، ولتعظُّم الجُرم في الذهاب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، ولذلك أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فإنه يفيد أن المستأذنَ مؤمنٌ لا محالة وأن

= ورجاله ثقات رجال الشيخين غير عمة عمارة فلم أعرفها.

● وله سند آخر أخرجه النسائي (٧/ ٢٤١ رقم ٤٤٥١ و٤٥٥٢) وابن ماجة (٢/ ٧٢٣ رقم ٢١٣٧) وأحمد (٦/ ٤٢، ٢٢٠) كلهم من طريق الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة.

قال الألباني في الإرواء (٣/ ٣٣٠) إسناده صحيح.

والخلاصة أن الحديث صحيح. والله أعلم.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣٠.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣١.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٣١.

(٤) أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص٤٥٢ ـ ٤٥٣ رقم ٨٨٣) بسند ضعيف.
وانظر «الكافي الشاف» (ص١٢٠ رقم ٩١).

الذهابَ بغير إذن ليس كذلك. ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ ما يعرِض لهم من المهامّ، وفيه أيضاً مبالغةُ وتضييقُ الأمر ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ تفويضٌ للأمر إلى رأي الرسول ﷺ، واستُدل به على أن بعضَ الأحكام مفوّضةٌ إلى رأيه، ومن منع ذلك قيّد المشيئة بأن تكون تابعةً لعلمه بصدقه فكأن المعنى: فائذن لمن علمت أن له عذراً. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذن فإن الاستئذانَ ولو لعذر قصورٌ لأنه تقديمٌ لأمر الدنيا على أمر الدين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لفَرطات العباد. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتيسير عليهم.

لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ
مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ
لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ
وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

(٦٣) ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ لا تَقيسوا دعاءَه إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في جواز الإعراض والمساهلةِ في الإجابة والرجوع بغير إذن، فإن المبادرة إلى إجابته عليه الصلاة والسلام واجبةٌ والمراجعةُ بغير إذنه محرّمة. وقيل لا تجعلوا نداءَه وتسميتَه كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوتِ به والنداءِ من وراء الحجرات ولكن بلَقَبه المعظم مثلُ يا نبي الله ويا رسول الله مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، أو لا تجعلوا دعاءه عليكم كدعاء بعضكم على بعض فلا تبالوا بسخطه فإن دعاءه موجِبٌ، أو لا تجعلوا دعاءه ربَّه كدعاء صغيركم كبيرَكم يجيبه مرة ويرده أخرى فإن دعاءه مستجاب. ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ ينسلّون قليلاً قليلاً من الجماعة، ونظيرُ تسلّل تدرّج وتدخّل ﴿لِوَاذًا﴾ يستتر بعضُكم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يؤذَن له فينطلق معه كأنه تابعُه. وانتصابه على الحال. وقرىء بالفتح[١]. ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سَمْتاً خلافَ سَمته، وعن لتضمُّنه معنى الإعراض. أو يصُدّون عن أمره دون المؤمنين مَن خالفه عن الأمر إذا صد عنه دونه، وحذفُ المفعول لأن المقصود بيانُ المخالِف والمخالَف عنه، والضمير لله تعالى، فإن الأمر له في الحقيقة، أو للرسول فإنه المقصود بالذكر. ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ محنة في الدنيا. ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. واستُدل به على أن الأمر للوجوب فإنه يدل على أن ترك مقتضى الأمرِ مقتضٍ لأحد العذابين، فإن الأمر بالحذر عنه يدل على خشية المشروط بقيام المقتضي له وذلك يستلزم الوجوب[٢].

(٦٤) ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيها المكلفون من المخالفة والموافقة والنفاق والإخلاص، وأنما أكد علمَه بقد لتأكيد الوعيد ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يوم يرجعُ المنافقون إليه

---

(١) أي بفتح اللام.
(٢) وإعادة الفعل صريحاً «يصيبهم» للاعتناء بالتهديد والتحذير (س٦/ ١٩٩).

للجزاء، ويجوز أن يكون الخطابُ أيضاً مخصوصاً بهم على طريق الالتفات. وقرأ يعقوبُ بفتح الياء وكسر الجيم. ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ من سوء الأعمال بالتوبيخ والمجازاة عليه. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه خافية. عن النبي ﷺ «من قرأ سورة النور أعطيَ من الأجر عشرَ حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.
[«الكافي الشافِ» (ص١٢١ رقم ٩٢)].

سورة الفتح

ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

سورة الفتح مدنيةٌ[(١)]

نزلت في مرجعِ رسولِ الله ﷺ من الحديبية وآيُها تسعٌ وعشرون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وعدٌ بفتح مكّةَ، والتعبير عنه بالماضي لتحقُّقِه. أو بما اتفقَ له في تلك السَّنَةِ كفتحِ خيبرَ وَفَدَكَ. أو إخبارٌ عن صلح الحديبية، وإنما سمَّاه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلحَ وتسببَ لفتحِ مكةَ، وفرغ به رسولُ الله ﷺ لسائرِ العرب فغزاهم وفتحَ مواضعَ، وأدخل في الإسلام خلقاً عظيماً، وظهر له في الحديبية آيةٌ عظيمة وهي أنه نزحَ ماؤُها بالكلية فتمضمضَ ثم مجَّه فيها فدرَّتْ بالماء حتى شربَ جميع مَنْ كان معه[(٢)]، أو فتحِ الرومِ فإنهم غلبوا الفرسَ في تلك السنةِ، وقد عرفتَ كونه فتحاً للرسول عليه الصلاة والسلام في سورة الرومِ. وقيل الفتح بمعنى القضاءِ أي قضينا لك أن تدخلَ مكّة من قابلٍ.

(٢) ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ علّةٌ للفتح من حيثُ إنه مسبّبٌ عن جهاد الكفارِ والسّعْي في إزاحة الشرك

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٥٠٧). و«المحرر الوجيز» (١٥/ ٨٤).

(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٦/ ٥٨١ رقم ٣٥٧٧) عن البراء بن عازب.

وإعلاءِ الدين وتكميلِ النفوس الناقصةِ قهراً ليصيرَ ذلك بالتدريج اختياراً، وتخليصِ الضَّعفةِ عن أيدي الظَّلَمةِ. ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جميعَ ما فَرَطَ منك مما يصحُّ أنْ تعاتَبَ عليه. ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بإعلاء الدين وضمِّ الملْكِ إلى النبوة. ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامةِ مراسِمِ الرئاسة.

(٣) ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ نصراً فيه عزٌّ ومَنَعةٌ، أو يُعَزُّ به المنصورُ فوُصِفَ بوصْفه مبالغةً[١].

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثباتَ والطمأنينةَ. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حتى ثبتُوا حيث تقلَقُ النفوسُ وتَدْحَضُ الأقدامُ. ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنانِ النفس عليها، أو نَزَل فيها السكونَ إلى ما جاءَ به الرسولُ ﷺ ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانِهم بالله واليوم الآخر. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يدبِّر أمرَها فيسلِّط بعضَها على بعض تارةً ويوقِعُ فيما بينَهم السِّلْمَ أخرى كما تقتضيه حكمتُه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما يقدِّر ويدبِّر.

لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ﴿٦﴾

(٥) ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ علَّة بما بعدَه لما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[٢] من معنى التدبير، أي دبَّر ما دبَّر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمةَ الله فيه ويشكروها فيدخلَهم الجنةَ ويعذِّبُ الكفارَ والمنافقينَ لما غاظَهم من ذلك، أو فتحنا أو أنزلَ أو جميعُ ما ذكر أو ليزدادوا، وقيل إنه بدلٌ منه بدلَ الاشتمالِ. ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ يغطِّيها ولا يظهرُها. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإدخالُ والتكفير. ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ لأنه منتهى ما يطلبُ من جلْبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ، وعند حالٌ من الفوزِ.

(٦) ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ عطفٌ على يدخلَ إلا إذا جعلته بدلاً فيكون عطفاً على المبدَلِ منه[٣]. ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ ظنَّ الأمرِ السوءِ وهو أنْ لا ينصرَ رسولَه والمؤمنين. ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ دائرةُ ما يظنُّونه ويتربَّصونه بالمؤمنينَ لا يتخطَّاهم، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو دائرةُ السوءِ بالضمِّ وهما لغتانِ، غيرَ أنَّ المفتوحَ غلبَ في أنْ يُضافَ إليه ما يُرادُ ذمُّه والمضمومُ جَرَى مجرى الشرِّ وكلاهما في الأصل مصدرٌ. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ عطفٌ لما استحقُّوه في الآخرة على ما استوجَبُوهُ في الدنيا. والواوُ في الأخيرين ـ والموضعُ موضعُ الفاء. إذِ اللَّعنُ سببٌ للإعداد والغضبُ سببٌ له ـ لاستقلالِ الكلِّ في الوعيدِ بلا اعتبار السببيةِ. ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ جهنَّمُ.

---

(١) إظهار الاسم الجليل «الله» لإظهار كمال العناية بشأن النصر (س٨/ ١٠٤).

(٢) الفتح: «٧».

(٣) وفي تقديم المنافقين عن المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحف منهم بالعذاب (س٨/ ١٠٥).

وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾
لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ
اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

(٧) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

(٨) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على أُمتِكَ. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ على الطاعة والمعصية.

(٩) ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والأمّةِ، أو لهم على أنَّ خطابَه منزَّلٌ منزلةَ خطابِهم. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوُّوهُ بتقويةِ دينه ورسوله ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظِّموه. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزِّهوه أو تُصَلُّوا له. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوةً وعشيّاً أو دائماً. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو الأفعالَ الأربعةَ بالياءِ، وقرىء تُعْزِروه بسكون العين، وتَعَزِروه بفتحِ التاءِ وضمِّ الزاي وكسْرِها، وتعزِّزُوه بالزاءَيْنِ، وتُوقِروه من أوقرَهُ بمعنى وقَّرَهُ.

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ لأنه المقصودُ ببيعته. ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ حالٌ أو استئنافٌ مؤكِّدٌ له على سبيلِ التخييلِ. ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقضَ العهدَ. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ﴾ فلا يعود ضررُ نكثِه إلا عليه. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ﴾ في مبايعتِه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنةُ. وقُرِىءَ عهِدَ. وقرأ حفصٌ عليهُ بضمِّ الهاء، وابنُ كثير ونافع وابنُ عامر وروْحٌ فسنؤتيه بالنونِ. والآيةُ نزلتْ في بيعة الرضوانِ[1].

(١١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ هم أَسْلَمُ وجُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ وغفارُ استنفرهم رسولُ اللهِ ﷺ عامَ الحديبيةِ فتخلَّفوا واعتلُّوا بالشُّغل بأموالهم وأهاليهم، وإنما خلَّفهم الخذلانُ وضعفُ العقيدةِ والخوفُ من مقاتلةِ قريش إنْ صدُّوهم. ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا مَنْ يقومُ بأشغالهم، وقرىء بالتشديدِ للتكثيرِ. ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ﴾ من الله على التخلُّفِ. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ تكذيبٌ لهم في الاعتذارِ والاستغفارِ. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمن يمنعُكم من مشيئته وقضائِه. ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضرُّكم كقتلٍ أو هزيمةٍ أو خللٍ في المالِ والأهلِ عقوبةً على التخلُّفِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالضمِّ. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ﴾ ما يُضادُّ ذلك، وهو تعريضٌ بالردِّ. ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيعلَمُ تخلُّفَكم وقَصْدَكُم فيه.

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة [شجرة سمرة] فبايعناه فنزلت الآية. [أسباب النزول، جلال السيوطي ص٢٦٥].

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا
كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لظنِّكُم أنَّ المشركينَ يستأصِلُونهم، وأهلونَ جمعُ أهلٍ، وقد يُجْمَعُ على أهلاتٍ كأرضاتٍ على أنَّ أصله أهَلَةٌ، وأما أهالٌ فاسمُ جمع كَلَيالٍ ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فتمكَّن فيها، وقرىء على البناءِ للفاعلِ وهو اللهُ أوِ الشيطانُ. ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الظنَّ المذكورَ، والمرادُ التسجيلُ عليه بالسوءِ أو هو وسائر ما يظنون بالله ورسولِه من الأمور الزائغةِ. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هالكينَ عندَ الله لفسادِ عقيدتكم وسوءِ نيّتِكم.

(١٣) ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضَعَ الكافرين موضِعَ الضمير إيذاناً بأنَّ مَنْ لم يجمعْ بينَ الإيمان بالله ورسوله فهو كافرٌ وأنه مستوجِبٌ للسعير بكفرِه، وتنكيرُ سعيراً للتهويلِ أو لأنها نارٌ مخصوصةٌ.

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبره كيفَ يشاءُ. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذ لا وجوبَ عليه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإنَّ الغفرانَ والرحمةَ من ذاتِه، والتعذيبُ داخلٌ تحتَ قضائِه بالعرضِ، ولذلك جاءَ في الحديث الإلهي: «سبقتْ رحمتي غضبي»(١).

(١٥) ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني المذكورين. ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانِمَ خيبرَ فإنه عليه الصلاة والسلام رجعَ من الحديبية في ذي الحجَّة من سنةِ ستٍّ وأقامَ بالمدينة بقيَّتها وأوائلَ المحرَّم، ثم غزا خيبرَ بمن شهدَ الحديبيةَ ففتحها وغنِمَ أموالاً كثيرةً فخصَّها بهم. ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أنْ يغيِّروه وهو وعْدُه لأهلِ الحديبيةِ أنْ يعوِّضَهم من مغانمِ مكَّة مغانِمَ خيبرَ، وقيل قوله تعالى ﴿لَن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾(٢) والظاهر أنه في تبوكَ. والكلامُ اسمٌ للتكليم غلبَ في الجملة المفيدةِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ كَلِمَ اللهِ وهو جمعُ كلمةٍ. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ نفيٌ في معنى النهي. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾. من قبلِ تهيُّئِهم للخروج إلى خيبرَ. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن يشارِكَكُم في الغنائمِ، وقرىء بالكسرِ. ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً وهو فطنتُهم لأمورِ الدنيا، ومعنى الإضرابِ الأول ردٌّ منهم أنْ يكونَ حكمُ الله أنْ لا يتَّبِعُوهم وإثباتُ

---

(١) أخرج البخاري رقم (٣١٩٤) وأطرافه (٧٤٠٤)، (٧٤٢٢) و(٧٤٥٣) و(٧٥٥٤) ومسلم رقم (٢٧٥١).
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابه، فهو عندَهُ فوق العرش: إن رحمتي غَلَبَتْ غضبي».

(٢) التوبة: «٨٣».

للحسدِ، والثاني ردٌّ من اللهِ لذلك وإثباتٌ لجهْلِهم بأمورِ الدين.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ
أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ
حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ كرَّر ذِكرَهُم بهذا الاسم مبالغةً في الذمِّ وإشعاراً بشناعة التخلُّفِ. ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفةَ أو غيرَهم ممَّنِ ارتدُّوا بعدَ رسولِ الله ﷺ، أو المشركين فإنه قال: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحدُ الأمرين إما المقاتلةُ أو الإسلامُ لا غيرَ كما دلَّ عليه قراءةُ أو يسلمون، ومَنْ عداهُم يقاتَلُ حتى يسلِمَ أو يعطيَ الجزيةَ. وهو يدلُّ على إمامةِ أبي بكر رضي الله عنه إذ لم تتفقْ هذه الدعوةُ لغيرِهِ إلا إذا صحَّ أنهم ثقيفُ وهوازنُ فإنَّ ذلك كان في عهد النبوةِ. وقيل فارسُ والرومُ ومعنى يسلِمونَ ينقادون ليتناولَ تقبُّلَهُمُ الجزيةَ. ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمةُ في الدنيا والجنةُ في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عن الحديبية. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم.

(١٧) ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لما أوعدَ على التخلُّف نَفَىٰ الحرجَ عن هؤلاءِ المعذورينَ استثناءً لهم عن الوعيد[١]. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فصَّلَ الوعْدَ وأجملَ الوعيدَ مبالغةً في الوعد لسبقِ رحمتِه، ثم جبَرَ ذلك بالتكرير على سبيلِ التعميم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ الترهيبُ ها هنا أنفعُ من الترغيبِ، وقرأ نافع وابنُ عامر ندخلْه ونعذِّبه بالنونِ.

(١٨) ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ رُوِيَ أنه ﷺ لما نزلَ الحديبيةَ بعثَ جوَّاسَ بنَ أميةَ الخزاعي إلى أهل مكَّةَ، فهمُّوا به فمنعه الأحابيشُ فرجعَ، فبعثَ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ الله عنه فحبسوهُ فأرجفَ بقتلِه، فدعا رسولُ الله ﷺ أصحابَه وكانوا ألفاً وثلثَمائةٍ أو وأربعمائة أو وخمسَمائة، وبايعهم على أنْ يقاتِلُوا قريشاً ولا يفِرُّوا عنهم وكان جالساً تحتَ سمرةٍ أو سدرةٍ[٢]. ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاصِ. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطمأنينةَ، وسكونُ النفس بالتشجيعِ أو

---

(١) وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة (س٨/١٠٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطولاً. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥) بسند ضعيف عن عروة بن الزبير، وعن ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم.
وأما حديث البيعة بدون ذكر السبب فهو في الصحيحين من طرق وألفاظ مختلفة، البخاري (٧/ ٤٤٣) ومسلم (٣/ ١٤٨٣).
والسَّمُرة: بضم الميم ـ من شجر الطلح ـ وهو شجر عظيم من شجر العضاة.

الصُّلحِ. ﴿ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ فتحَ خيبرَ غِبَّ انصرافِهم، وقيلَ مكّةَ أو هَجَرَ.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ
هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ
عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا
يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي
كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾

(١٩) ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ ﴾ يعني مغانِمَ خيبرَ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ غالباً مراعياً مقتضى الحكمةِ.

(٢٠) ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا ﴾ وهي ما يفيءُ على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ ﴾ يعني مقامَ خيبرَ. ﴿ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾ أي أيديَ أهلِ خيبرَ وحلفائِهم من بني أسدَ وغطفانَ، أو أيدي قريش بالصلح. ﴿ وَلِتَكُونَ ﴾ هذه الكفةُ أو الغنيمةُ. ﴿ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أمارةً يعرفون بها أنهم من الله بمكانٍ، أو صِدقَ الرسول في وعدِهم فتحَ خيبرَ في حينِ رجوعه من الحديبية، أو وعدَ المغانم أو عنواناً لفتح مكّةَ، والعطفُ على محذوفٍ هو علةٌ لكفٍّ، أو عجَّلَ مثلُ لتسلموا، أو لتأخذوا أوِ العلةُ لمحذوفٍ مثلُ فعلَ ذلك. ﴿ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ هو الثقةُ بفضلِ الله والتوكُّلِ عليه.

(٢١) ﴿ وَأُخۡرَىٰ ﴾ ومغانمُ أخرى معطوفةٌ على هذه، أو منصوبةٌ بفعلٍ يفسِّره قد أحاط الله بها مثلَ قضَى، ويُحتَمَلُ رفعُها بالابتداءِ لأنها موصوفةٌ وجرُّها بإضمارِ ربَّ. ﴿ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا ﴾ بعد لما كان فيها من الجولةِ. ﴿ قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ ﴾ استولى فأظفرَكُم بها وهي مغانمُ هوازنَ أو فارسَ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ لأن قدرته ذاتيةٌ لا تختصُّ بشيء دونَ شيء.

(٢٢) ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ من أهل مكةَ ولم يصالحوا. ﴿ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ﴾ لانهزموا. ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا ﴾ يحرسُهم. ﴿ وَلَا نَصِيرٗا ﴾ ينصرُهم.

(٢٣) ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ ﴾ أي سنَّ غلبةَ أنبيائه سُنَّةً قديمةً فيمن مضى من الأمم كما قال تعالى ﴿ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ ﴾[(١)]. ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ تغييراً.

(٢٤) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ ﴾ أي أيدي كفارِ مكّة. ﴿ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ ﴾ في داخل مكّةَ. ﴿ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ أظهركم عليهم، وذلك أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرجَ في خمسِمائةٍ إلى الحديبية، فبعث رسولُ الله ﷺ خالد بنَ الوليد على جنْد فهزمَهم حتى أدخلَهم حيطانَ مكّةَ ثم عاد[(٢)].

---

(١) المجادلة: «٢١».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/٩٥) عن ابن حميد الرازي وهو ضعيف. وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٥٣ رقم ٤٢٤): «وفي صحته نظر لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية...» هـ.

وقيل كان ذلك يومَ الفتحِ واستُشهِدَ به على أنَّ مكةَ فتحت عُنوَةً وهو ضعيفٌ إذ السورةُ نزلتْ قبلَه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من مقاتلتِهم أولاً طاعةً لرسوله وكفِّهم ثانياً لتعظيم بيتِه، وقرأ أبو عمرو بالياء ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عليه.

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٢٦﴾ لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ يدلُّ على أنَّ ذلك كان عامَ الحديبية، والهدي ما يُهْدَى إلى مكَّةَ. وقرىء الهديُ وهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، ومحلّه مكانُه الذي يحلُّ فيه نحرُه والمرادُ مكانُه المعهودُ وهو مِنًى لا مكانُه الذي لا يجوزُ أنْ يَنحَرَ في غيرِه، وإلا لما نَحرَهُ الرسولُ ﷺ حيث أُحْصِرَ فلا ينتهضُ حجَّةً للحنفيةِ على أنَّ مذْبَحَ هدْي المُحْصَرِ هو الحرمُ. ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطِهم بالمشركين. ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ أنْ توقعوا بهم وتبيدُوهم قال:

وَوَطِئْتَنَــا وَطْــأً عَلَــى حَنَــقٍ وطْءَ المُقَيَّــدِ ثَــابِــت الهَــرَمِ

وقال عليه الصلاةُ والسلام «إنَّ آخرَ وطأةٍ وطِئَهَا الله بوجٍّ»(١) وهو وادٍ بالطائفِ كان آخِرَ وقعةٍ للنبي ﷺ بها، وأصلُه الدوسُ وهو بدلُ الاشتمالِ من رجالٍ ونساء أو من ضميرِهم في تعلَموهم. ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم﴾ من جهتهم. ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ مكروهٌ كوجوبِ الديةِ والكفَّارةِ بقتْلِهم وللتأسُّفِ عليهم، وتعييرُ الكفارِ بذلك والإثمُ بالتقصيرِ في البحثِ عنهم مفعلةٌ من عرَّه إذا أعْرَاهُ ما يكرهُه. ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ متعلِّقٌ بأنْ تطؤوهم أي تطؤُوهم غيرَ عالمينَ بهم، وجوابُ لولا محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، والمعنى لولا كراهةَ أنْ تهلِكوا أناساً مؤمنين بينَ أظهُرِ الكافرين جاهلينَ بهم فيصيبُكم بإهلاكهم مكروهٌ لما كفَّ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢/٤) والبيهقي في الأسماء والصفات ص٤٦١، من حديث يعلى العامري. وفيه سعيد بن أبي راشد: مقبول، قاله الحافظ في التقريب. وقال عنه الذهبي في «الكاشف» صدوق.
والحديث له شاهد من حديث (خولة بنت حكيم) أخرجه أحمد (٤٠٩/٦) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٦١). وفي إسناده: محمد بن أبي سويد الطائفي: مجهول، قاله الحافظ في التقريب.
وخلاصة القول أن الحديث حسن والله أعلم.
قلت: أول البيهقي الحديث ومذهب السلف إمرار صفاته تعالى كما جاءت دون تأويل ولا تعطيل ولا تكييف.

أيديكُم عنهم. ﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ علّةٌ لما دلَّ عليه كفُّ الأيدي عن أهل مكّةَ صوناً لمن فيها من المؤمنين، أي كان ذلك ليدخلَ اللهُ في رحمته أي في توفيقه لزيادةِ الخير أو للإسلام. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ مؤمنيهم أو مشركيهم. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرّقوا وتميّزَ بعضُهم من بعض، وقرئ تزايلوا. ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتل والسبي.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مقدَّرٌ باذكُر أو ظرفٌ لعذبنا أو صدُّوكم. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الأنفةَ. ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ التي تمنعُ إذعانَ الحقِّ. ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزل عليهم الثباتَ والوقارَ وذلك ما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام لما همَّ بقتالهم بعثُوا سهيلَ بنَ عمرو وحويطبَ بنَ عبدالعزّى ومكرزَ بنَ حفص ليسألوه أنْ يرجعَ من عامِه على أنْ يُخْلِيَ له قريشٌ مكّةَ من القابلِ ثلاثةَ أيامٍ، فأجابهم وكتبوا بينَهم كتاباً، فقال عليه الصلاة والسلام لعليٍّ رضي الله عنه «اكتبْ بسم الله الرحمنِ الرحيم» فقالوا ما نعرفُ هذا اكتبْ باسمك اللهمَّ ثم قال: «اكتبْ هذا ما صالح عليه رسولُ الله أهلَ مكّة» فقالوا: لو كنا نعلمُ أنك رسولُ الله ما صددْناك عن البيت وما قاتلْناك، اكتبْ هذا ما صالح عليه محمد بنُ عبد الله أهلَ مكّةَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتب ما يريدون» فهمَّ المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشُوا عليهم فأنزلَ الله السكينةَ عليهم فتوقَّروا وتحمَّلوا[1]. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ﴾ كلمةَ الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمدُ رسول الله اختارَها لهم، أو الثباتَ والوفاءَ بالعهد، وإضافةُ الكلمةِ إلى التقوى لأنها سببُها أو كلمةُ أهلِها. ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم. ﴿وَأَهْلَهَا﴾ والمستأهِلينَ لها. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلَمُ أهلَ كلِّ شيء وييسرُه له.

(٢٧) ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ رأى عليه الصلاة والسلام أنه وأصحابَه دخلُوا مكّة آمنين وقد حلَّقوا وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسِبوا أن ذلك يكونُ في عامِهم، فلما تأخّر قال بعضُهم والله ما حلقْنا ولا قصَّرنا ولا رأينا البيتَ فنزلتْ[2] والمعنى صدقَه في رؤياه. ﴿بِالْحَقِّ﴾ ملتبِساً به فإن ما رآه كائنٌ لا محالةَ في وقتِه المقدَّر له وهو العامُ القابلُ، ويجوزُ أنْ يكونَ بالحقِّ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ أي صدقاً ملتبساً بالحقِّ وهو القصدُ إلى التمييز بينَ الثابتِ على الإيمان والمتزلزِلِ فيه، وأنْ يكون قسماً إما باسم الله تعالى أو بنقيضِ الباطل وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ جوابُه وعلى الأوّلينِ جوابُ قسَم محذوف. ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليقٌ للعدةِ بالمشيئة تعليماً للعبادِ، أو إشعاراً بأن بعضَهم لا يدخل لموتٍ أو غيبةٍ أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا، أو النبيُّ ﷺ لأصحابه. ﴿آمِنِينَ﴾ حالٌ من الواو، والشرطُ معترِضٌ. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي محلقاً بعضُكم ومقصِّراً آخرون. ﴿لَا

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٣/ ٤٢٧، ٤٤٠) وأحمد في المسند (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦) من طريق ابن إسحاق. وقد صرح بالسماع عند ابن هشام وسنده متصل ورجاله ثقات ولم يصرح ابن إسحاق بالسماع عند أحمد.
والخلاصة أن الحديث حسن.
وأخرجه البخاري (٥/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤ رقم ٢٦٩٨، ٢٦٩٩) ومسلم (٣/ ١٤٠٩ ـ ١٤١١ رقم ٩٠، ٩١، ٩٢/ ١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب ومسلم (٣/ ١٤١١ رقم ٩٣/ ١٧٨٤) من حديث أنس.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٦٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/ ١٠٧) بإسنادين أحدهما إسناد البيهقي، وهو إسناد صحيح إلى مجاهد.

﴿تَخَافُونَ﴾ حالٌ مؤكِّدة أو استئنافٌ أي لا تخافون بعدَ ذلك. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ من الحكمة في تأخير ذلك. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ من دون دخولكم المسجدَ أو فتحِ مكّة. ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتحُ خيبرَ ليستروحَ إليه قلوبُ المؤمنين إلى أنْ يتيسَّر الموعودُ.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

(٢٨) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ ملتبِساً به أو بسببِه أو لأجلِه. ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام. ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليغلبَه على جنسِ الدين كلِّه بنسْخِ ما كان حقاً، وإظهارِ فسادِ ما كان باطلاً، أو بتسليط المسلمين على أهلِه إذ ما من أهل دينٍ إلا وقد قهرهُم المسلمونَ، وفيه تأكيدٌ لما وعدَه من الفتح. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعدَه كائنٌ أو على نبوَّته بإظهارِ المعجزات.

(٢٩) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ جملةٌ مبيِّنة للمشهود به، ويجوزُ أنْ يكونَ رسولُ الله صفةً ومحمدٌ خبرُ محذوف أو مبتدأ: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوفٌ عليه وخبرهما. ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ وأشدَّاء جمعُ شديد ورحماءُ جمع رحيم، والمعنى أنهم يغلُظُون على مَنْ خالف دينَهم ويتراحمون فيما بينَهم كقوله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(١). ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثرِ أوقاتِهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ الثوابَ والرضا. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ يريد السمةَ التي تحدُثُ في جباههم من كثرة السجود، فعلى من سامَه إذا أعلَمه وقد قرئت ممدودةً ومن أثرِ السجود بيانُها أو حالٌ من المستكِنِّ في الجارِّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الوصف المذكورِ، أو إشارة مبهمةٌ يفسِّرها كزرع. ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾ صفتُهم العجيبةُ الشأنِ المذكورةُ فيها. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ عليه أن ذلك مثلُهم في الكتابين وقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ تمثيلٌ مستأنَفٌ أو تفسيرٌ أو مبتدأ، وكزرع خبرهُ. ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ فراخَه يُقَالُ أشطأ الزرع إذا فرَّخَ، وقرأ ابن كثير وابن عامر برواية ابنِ ذكوانَ شَطَأَه بفتحاتٍ وهو لغةٌ فيه، وقرىء شَطَاهُ بتخفيفِ الهمزة، وشطاءَه بالمدِّ، وشَطَه بنقل حركةِ الهمزة وحذفِها، وشَطُوه بقلبها واواً. ﴿فَآزَرَهُ﴾ فقوَّاه من المؤازرةِ وهي المعاونةُ أو من الإيزارِ وهي الإعانة، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوانَ فأزَرَه كأجَرَه في آجَرَهُ. ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقةِ إلى الغلظِ. ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ فاستقامَ على قصبه جمع ساقٍ، وعن ابن كثير سؤقَه بالهمزةِ. ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وقوّته وغِلَظِه وحُسْنِ منظره. وهو مَثَلٌ ضربَه الله تعالى للصحابة قلُّوا في بدء الإسلام ثم كثرُوا واستحكموا فترقَّى أمرهم بحيث أعجبَ الناسَ. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ علةٌ لتشبيههم بالزرع في زكاته واستحكامه أو لقوله:

---

(١) المائدة: «٥٤».

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ **فإنَّ الكفارَ لما سمعوه غاظَهم ذلك ومنهم للبيان. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الفتح فكأنما كان ممنْ شهدَ مع محمدٍ عليه الصلاة والسلام فتحَ مكَّةَ»**(١).

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والواحدي بالإسناد إلى أبي بن كعب.
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة يس

آياتها ثلاث وثمانون وهي مكيّة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة يس وتسمى معمة أخرج ابن مردويه والخطيب والبيهقي عن أبي بكر الصديق عن النبيّ ﷺ أنَّه قال: «يس تدعى معمة تعم صاحبها خير الدين» وتسمَّى الدافعة لأنها تدفع عن صاحبها كل سوء وتسمَّى القاضية لأنها تقضي كل حاجة مكية وهي ثلاث وثمانون آية.

﴿يسٓ ① وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ⑤ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ⑥ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ⑧ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ⑨ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑩ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ⑪ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ⑫﴾.

﴿يسٓ ①﴾ أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال كان رسول الله ﷺ يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه فإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم عمي لا يبصرون فجاءوا إلى النبيّ ﷺ فقالوا ننشدك بالله والرحم يا محمد، ولم يكن بطن من بطون قريش إلا وللنبي ﷺ فيهم قرابة فدعا النبيّ ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت يس إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلم يؤمن من ذلك النفر أحد، قرأ حمزة وأبو بكر بإمالة فتح الياء والباقون باخلاصها وورش وأبو بكر وابن عامر والكسائي يدغمون نون الهجاء في الواو ويبقون الغنة وكذلك في ن ق القلم غير أن عامة أهل الأداء من البصريين يأخذون في مذهب ورش هناك بالبيان والباقون بإظهار النون في السورتين. ويس كسائر المقطعات في المعنى والإعراب وقيل معناه يا إنسان بلغة طي

يعني به محمداً ﷺ على أن أصله يا أنيسين فاقتصر على شطره لكثرة النداء كما قيل من الله في أيمّن الله كذا روى عن ابن عباس وهو قول الحسن وسعيد بن جبير وجماعة، وقال أبو العالية يا رجل وقال أبو بكر الوراق يا سيد البشر وروي عن ابن عباس أنه قسم ﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ أي المحكم بعجيب النظم وبديع المعاني الواو للقسم أو العطف إن جعل يس مقسماً به ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ جواب قسم. فإن قيل الغرض من الإخبار أما إفادة الحكم للمخاطب أو إفادة لازم الحكم يعني إفادة أن المتكلم عالم به وهاهنا لا يتصور شيء منهما فأيُّ فائدة في الأخبار؟ قلنا الغرض هاهنا إعلام الكفار ورد إنكارهم وإصرارهم حيث قالوا (لَسْتَ مُرْسَلاً) ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ متعلق بالمرسلين أي لمن الذين أرسلوا على صراط مستقيم وهو التوحيد والإستقامة في الأمور، أو ظرف مستقر خبر ثان لأن أو حال من المستكن في الجار والمجرور وفائدته المدح ووصف الشرع بالإستقامة صريحاً وإن دلّ عليه ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلتزاماً.

﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٥﴾ قرأ حفص وابن عامر وحمزة والكسائي بنصب تنزيل بإضمار أعني بين للصراط أو بإضمار فعله تقديره نَزَّلَ يعني القرآن تَنْزِيل العَزِيْزِ في ملكه الرَّحِيْم بخلقه حيث نزل الكتاب وأرسل الرسول فحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الفاعل وقرأ الباقون بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي القرآن ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلق بتنزيل أو بمعنى قوله لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنَ ﴿مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ﴾ ما نافية والجملة صفة لقوم أي لتنذر قوماً لم ينذر أباؤهم حيث لم يبعث بمكة نبي بعد إسماعيل عليه السلام فهم أشد إحتياجاً إلى الرسالة من غيرهم ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ أي لم ينذروا فبقوا غافلين، وقيل ما موصولة أو موصوفة والمعنى لِتُنْذِرَ قَوْماً بالذي أو بشيء أُنذِرَ به أباؤُهُمُ الابعدون فيكون مفعولاً ثانياً لتنذر أو مصدرية يعني لِتُنْذِرَ قوماً إنذار آبائهم أي مثل إنذارهم وعلى هذه الوجوه قوله: ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ متعلق بقوله إنك لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنَ أي أرسلناك إليهم لتنذرهم فإنهم غافلون ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني قوله تعالى: لأملأنَّ جهنّم من الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمعين ﴿فَهُمْ﴾ أي ذلك الآكثر ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال أبو جهل لئن رأيتُ محمداً لأفعلن ولأفعلن فنزلت ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ إلى قوله ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ فكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو أين هو لا يبصره، وقال البغوي نزلت في أبي جهل وصاحبه المخروميين وذلك أن أبا جهل كان قد حلف لئن رأى محمداً يصلّي ليرضخن رأسه فرآه وهو يصلّي ومعه حجر ليدمغه فلمّا رفعه انثنت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده، فلمّا عاد إلى أصحابه وأخبرهم

بما رأى سقط قال رجل من بني مخزوم أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه وهو يصلّي ليرميه بالحجر فأعمى الله بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه فقالوا له ما صنعت؟ فقال ما رأيتُهُ ولقد سمعتُ صوته وحال بيني وبينه شيء كهيئة الفحل يخطر بذنبه ولو دنوتُ منه لأكلني فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي الأغلال وأصله إلى أذقانهم فلا يخليهم يطأطئون، وقال البغوي هي كناية عن الأيدي وإن لم يجر لها ذكر لأن الغل بجمع اليد إلى العنق معناه إنَّا جعلنا في أيديهم وأعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ الفاء للسببية فإن الأغلال سبب للإقحام يعني هم رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم لا يستطيعون النظر إلى شيء، وأخرج البيهقي في الدلائل من طريق السدّي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن ناساً من بني مخزوم تواصوا بالنبي ﷺ ليقتلوه منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة فبينا النبيّ ﷺ قائم يصلّي يسمعون قراءته أرسلوا إليه الوليد ليقتله فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلّي فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه فانصرف إليهم فأعلمهم فأتوه فلما انتهوا إلى المكان الذي هو يصلي فيه سمعوا قراءته فيذهبون إلى الصوت فإذا الصوت من خلفهم فيذهبون إليه فيسمعونه أيضاً من خلفهم فانصرفوا ولم يجدوا إليه سبيلا فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص بفتح السين والباقون بفتحها وهما لغتان ﴿فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ﴾ أي فأعميناهم من التغشية وهي التغطية ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الفاء للسببية، قال أهل المعاني هذا على طريق التمثيل ولم يكن هناك غلٌ ولا سدٌ، أراد الله سبحانه أنا منعناهم عن الإيمان بموانع فجعل الأغلال والسد مثلاً لذلك فهو تقرير لتصميمهم على الكفر والطبع على قلوبهم بحيث لا يغني عنهم الآيات والنذر مثلهم بالذين غلّت أعناقهم فهي إلى الأذقان فهم مقمحون وبالذين جعل بينهم السد وبين ما يريدون رؤيته في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رؤوسهم له ولو طأطئوا رؤوسهم فرضاً يمنعهم السد عن الأبصار فهم لا يبصرون سبيل الهدى أراد أنا منعناهم عن إيذاء الرسول بحفظنا إياه، وجاز أن يكون جعلنا بمعنى نجعل أورد صيغة الماضي لتحقق الوقوع يعني نجعل في جهنم في أعناقهم أغلالاً ونجعل بين أيديهم سداً وذلك بجعلهم الله تعالى في توابيت من نار ﴿وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ سبق تفسيره في سورة البقرة.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتب عليه الفائدة ﴿من اتبع الذكر﴾ أي القرآن بالتأمل فيه والعمل به ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ أي خاف عقابه أو المعنى إنما ينفع إنذارك لمن كان صالحاً

لاتباع الذكر والخشية مستعداً لذلك لم يقل وخشي القهار المنتقم للدلالة على أن الخشية مع ملاحظة صفة الرحمة كمال الخشية وعين الإيمان وأن الإيمان بين الخوف والرجاء ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من فاعل خشي يعني غائباً عن عذابه قبل أن يعاينه أو غائباً عن الناس في خلوته ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ حسن وهو الجنة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ عند البعث أو المراد إنا نعطي العلم والهداية بعد الجهل والضلال ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الحسنة كعلم علموه وحبس وقفوه وسنة حسنة سنوه والسيئة كإشاعة باطل وتأسيس ظلم وتأييد كفر وبدعة إبتدعوها، قال النبيّ ﷺ: «**من سن في الإسلام سنة حسنة يعمل بها من بعده فله أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة يعمل بها من بعده فإن له وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**»(١) رواه مسلم عن حديث جرير، وقال قوم معنى آثارهم في قوله نكتب ما قدموا وآثارهم خطوهم إلى المساجد، عن أبي موسى الأشعري قال قال: رسول الله ﷺ «**أعظم الناس أجراً في الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى والذي ينتظر الصلوات حتى يصليها مع الإمام أعظم أجراً من الذي يصلي ثم ينام**»(٢) متفق عليه، وعن جابر رضي الله عنه قال: خلت البقاع حول المسجد فأراد بنوا سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك النبيّ ﷺ فقال لهم: «إنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟ قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك، فقال يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم»(٣) رواه مسلم، وروى البغوي عن أنس نحوه وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري نحوه ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر يفسره ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ يعني كتبناه ﴿فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب: الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الأذان، باب: فضل صلاة الفجر في جماعة (٦٥١)، وأخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد (٦٦٢).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: فضل كثرة الخطا إلى المساجد (٦٦٥).

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿واضرب لهم﴾ أي مثل لكفار مكة من قولهم هذه الأشياء على ضرب واحد أي مثال واحد وهو يتعدى إلى مفعولين لتضمنه معنى الجعل كأنه قيل وأجعل لهم ﴿مَثَلًا﴾ مفعول أول ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ مفعول ثان بحذف المضاف تقديره اجعل مثلهم أصحاب القرية وهي أنطاكية أخرجه الفريابي عن ابن عباس وابن أبي حاتم عن بريدة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة يعني قل حال أهل مكة مثل حال أهل إنطاكية ﴿إِذْ جَآءَهَا﴾ أي تلك القرية بدل إشتمال من أصحاب القرية ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يعني رسل عيسى عليه السلام، قال البغوي قال العلماء بأخبار القدماء بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية فلما قربا من المدينة فأتيا شيخاً يرعى غنمات له وهو حبيب صاحب عيسى عليه السلام فلمّا سلما عليه قال الشيخ لهما من أنتما؟ فقالا رسول الله يدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادة الرحمن، فقال معكما آيةٌ قال نعم نشفي المريض ونُبرِىء الأكمه والأبرص بإذن الله، فقال الشيخ إن لي ابناً مريضاً منذ سنتين قالا فانطلق بنا نطلع حاله، فأتى بهما إلى منزله فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً ففشى الخبر في لمدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى وكان لهم ملك، قال وهب إسمه انطفس وكان من ملوك الروم يعبد الأصنام قالوا فانتهى الخبر إليه فدعاهما فقال من أنتما؟ قالا رسولا عيسى، قال وفيم جئتما؟ قالا ندعوك من عبادة من لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر، قال ولكما إله دون آلهتنا، قالا نعم من أوجدك وآلهتك قال قُوْما حتى أنظر في أمركما فتبعهما الناس فأخذوهما وضربوهما في السوق.

قال وهبٌ: بعث عيسى هذين الرجلين إلى أنطاكية فأتياها فلم يصلا إلى ملكها رِطال مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبر أو ذكر الله فغضب الملك فأمر بهما فحبسهما وجلد كل واحد منهما مائتي جلدة، قالوا فلمّا كُذّب الرسولان وضُرِبا بعث عيسى رأس الحواريين شمعون الصفا على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضي عشرته وأنس به وأكرمه، ثم قال له ذات يوم أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل كلمتَهما وسمعتَ قولهما، فقال الملك حال الغضب بيني وبين ذلك، قال فإن رأى الملك، دعاهما حتى نطلع ما عندهما فدعاهما

الملك فقال لهما شمعون من أرسلكما إلى هاهنا؟ قالا الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك، فقال لهما شمعون صفاه وأوجزا، فقالا يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، قال شمعون وما آيتكما؟ قالا ما تتمنَّاه فأمر الملك حتى جيء بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة فما زال يدعوان ربهما حتى انشق موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب المِلك فقال شمعون للمَلِك إن أنت سألت إلهك حتى يصنع صنعاً مثل هذا فيكون لك الشرف فقال الملك ليس لي عنك من سر إن إلهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون إذا دخل الملك على الأصنام يدخل ويصلي كثيراً ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم فقال الملك للرسولين إن قدر إلهكم الذي تعبدانه على إحياء ميت أمنا به قالا إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك إن هاهنا ميتاً مات منذ سبعة أيام ابن لدهقان وأنا أخرتُه فلم أدفنه حتى يرجع أبوه وكان غائباً فجاءوا بالميت وقد تغير واروح فجعلا يدعوان ربهما علانية وجعل شمعون يدعو ربه سراً فقام الميت وقال إني قدمّتُ منذ سبعة أيام ووجدت مشركاً فأدخلتُ في سبعة أودية من النار وأنا أحذركم مما أنتم فيه فآمنوا بالله، ثم قال فتحت أبواب السماء فنظرت فرأيتُ شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة قال الملك ومن الثلاثة؟ قال شمعون وهذان وأشار إلى صاحبيه فتعجب الملك فلمَّا علم شمعون أن قوله أثر بالملك أخبره بالحال فآمن الملك وآمن قوم وكفر آخرون، وقيل: إن ابنة الملك كانت توفيت ودفنت فقال شمعون للملك أطلب هذين الرجلين أن يحييا ابنتك فطلب منهما الملك ذلك فقاما وصليا ودعوا وشمعون معهما قرأ بسر فأحيا الله المرأة وأنشق القبر عنها فخرجت وقالت أعلموا أنهما صادقان ولا أظنكم تسلمون ثم طلبت من الرسولين أن يرداها إلى مكانها فذرا تراباً على رأسها وعادت إلى قبرها كما كانت.

وقال ابن إسحاق عن كعب ووهب بل كفر الملك وأجمع هو وقومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيباً وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين فذلك قوله عزّ وجلّ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ﴾ بدل من إذ السابقة ﴿إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ قال وهب إسمهما يحيى ويونس ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ قرأ أبو بكر بالتخفيف، والباقون بالتشديد ومعناهما واحد أي فقوينا ﴿بِثَالِثٍ﴾ أي برسول ثالث وهو شمعون كذا أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير ترك ذكر المفعول به لأن المقصود ذكر المعزز به وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وزهق الباطل وإذا كان الكلام لغرض يجعل سياقه له ويرفض ما سواه، وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة

قال بلغني أن عيسى بعث إلى أهل القرية رجلين من الحواريين، وقال كعب الرسولان صادق وصدوق والثالث شاوم وإنما أضاف الله الإرسال إلى نفسه لأن عيسى بعثهم بأمره عزَّ وجلَّ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ كلهم لأهل أنطاكية ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ قَالُواْ﴾ أي أهل إنطاكية ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ لا مزية لكم علينا يقتضي اختصاصكم بالرسالة من الله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ من وحي ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ في دعوى الرسالة ﴿قالوا﴾ أي الرسل ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ إستشهدوا بعلم الله وهو يجري مجرى القسم ولذلك من قال الله يعلم إني فعلتُ كذا وهو كاذب كان غموساً وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم دون الأول ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾ الظاهر البين بالآيات الشاهدة لصحته كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى يعنون أن إنكاركم لا يضرنا بعدما كان علينا من أداء التبليغ وإنما هو يعود عليكم بالمضرة.

ولمَّا حبس الله عنهم المطر بتكذيبهم الرسل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ يعنون أن ما نزل بنا إنما هو بشؤمكم وذلك لاستغرابهم ما ادعوه واستقباحهم له وتنفرهم عنه فإن عادة الجهال أن يتمنوا كل شيء مالت إليه طباعهم ويتشاءموا ما كرهوه ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ عما تقولون ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحجارة ونقتلنكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم﴾ أي سبب شؤمكم ﴿مَّعَكُمۡ﴾ وهو كفركم، وقال ابن عباس حظكم من الخير والشر معكم لا ينفك عنكم ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ وعظتم به وجواب الشرط محذوف والإستفهام للإنكار يعني أن وعظتم تطيرتم بنا وتوعدتمونا بالرجم لا ينبغي ذلك بل كان ينبغي الإتعاظ والإمتنان، قرأ أبو جعفر بفتح الهمزة الثانية وذُكرتم بالتخفيف تقديره اتطيرتم وتوعدتم لأن ذكرتم ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ أي قوم عادتكم الإسراف في العصيان ومنها التشاؤم برسل الله والواجب التبرك بهم.

﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ

﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى﴾ وهو حبيب النجار أخرجه عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن قتادة وقال السديُّ كان قصاراً وقال وهب كان حبيب رجلاً يعمل الحرير وكان سقيماً وقد اسرع فيه الجذام وكان منزله عند اقصي باب من أبواب المدينة وكان مؤمناً ذا صدق يجمع كسبه إذا أمسى فقسم نصفين على عياله ويتصدق نصفه فلمّا بلغه أن قومه قصدوا قتل الرسل جاءهم و﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ ﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ على تبلغ الرسالة الجملة تأكيد للأول أو بدل يشتمل فائدة زائدة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدارين.

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ما إستفهامية مبتدأ والظرف خبر له ولا أعبد حال من ضمير المتكلم والجملة معطوفة على قوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم وفيه تلطف في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإنما في النصح حيث أراد لهم ما أراد لنفسه والمراد تقريعهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره ولذلك قال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد ثم عاد إلى السياق الأولى فقال ﴿ءأتخذ﴾ الآية وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال كان حبيب في الغار يعبد الله فلما بلغه خبر الرسل أتاهم يعني قومه فأظهر دينه وقال: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون﴾ فلما قال ذلك قالوا له وأنت مخالف لديننا ومتابع دين هؤلاء الرسل فقال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ أي خلقني ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب مالي بسكون الياء والباقون بفتحها، قيل أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع إليهم لأن الفطرة أثر النعمة وكان عليه إظهاره وفي الرجوع معنى الزجر فكان أليق بهم، قيل إنه لمّا قال إتَّبعُوا المرسلين أخذوه فرفعوه إلى الملك فقال له الملك أفأنت تتبعهم فقال ومالي لا أعبد الذي فطرني يعني أي شيء لي إذا لم أعبد خالقي ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عند البعث فيجازيكم أتخذ إستفهام إنكار أي لا اتخذ ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي دون الذي فطرني ﴿ءَأَلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي﴾ أي لا تنفعني ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ والتي تزعمونها ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ قرأ ورش بإثبات الياء في الوصل والباقون بالحذف في الحالين أي لا ينقذوني من عذاب الله أن عذبني وفي نفي الإغناء عن الشفاعة في دفع الضرر والإنقاذ من العذاب مبالغة في نفي النفع عن شفاعتهم مطلقاً فإن قبول الشفاعة لدفع الضرّ أقرب

من قبولها لنيل الرحمة والجملة الشرطية صفة لآلهة ﴿إِنِّي﴾ قرأ نافع وأبو عمرو بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿إِذًا﴾ أي إذا اتخذ مالا ينفع ولا يضر بوجه ما آلهة من دون من فطرني وهو يقدر على النفع والضر ﴿لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ظاهر لا يخفى على من له أدنى تميز كونه ضلالاً، والجملة تعليل للإنكار على اتخاذ الآلهة ﴿إِنِّيٓ﴾ قرأ نافع وابن كثير بفتح الياء والباقون بإسكانها ﴿ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم أيها القوم أو أيها الملك ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ أي فاسمعوا إيماني فعلى هذا هذه الآية من تتمة النصح فأن القوم إذا قيل لهم اتَّبِعُوا المرسلين كأنَّهُمْ قالوا هل آمنت أنت بهم فقال إني آمنتُ بربّكُمْ فاسمعوا أيماني ولو لم يكن هذا خيراً ما استأثرتُ به لنفسه وأضاف الرب إلى المخاطبين ولم يقل آمنت بربي ليكون أدعى لهم إلى الإيمان.

قال البغوي: فلمَّا قال ذلك وثب القوم وثبة رجل واحد فقتلوه قال ابن مسعود وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبة من دبره، وقال السديّ كانوا يرمونه بالحجارة وهو يقول اللَّهم اهد قومي حتى قطعوه وقتلوه، وقال الحسن خرقوا خرقاً في حلقه فعلقوه من سور المدينة وقبره بأنطاكية فأدخله الله الجنة وهو حي فيها يرزق يعني حياة الشهداء، وقيل الخطاب للرسل فإنه لمَّا رأى أنه يقتل إستشهد الرسل على ايمانه قبل أن يموت والتقدير فقال للرسل إني آمنت ﴿قِيلَ﴾ يعني قال الله تعالى لحبيب البخار رضي الله عنه لمَّا استشهد إكراماً وإذناً في دخول الجنة كسائر الشهداء ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقيل قال الله تعالى ذلك له قبل موته يعني أدخل قبرك الذي هو روضة من رياض الجنة وإنما لم يقل وقيل له لأن الغرض بيان المقول دون المقول له فإنه معلوم والكلام فيه والجملة مستأنفة في خير الجواب عن السؤال عن حاله عند لقاء ربه بعد تصلبه في نصر دينه والله أعلم.

ولما أفضى حبيب إلى الجنة ﴿قال﴾ ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ما موصولة أو مصدرية والباء متعلق بيعلمون أي يعلمون بالذي غفر لي ربي به أو بغفران ربي إياي أو استفهامية والباء متعلق بغفر أي بأي شيء غفر لي يريد به الإيمان والمصابرة على إيذاء الكافرين، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم على اكتساب الإيمان والطاعة على دأب الصالحين في كظم الغيظ والترحم على الأعداء أو ليعلموا أنهم كانوا على خطأ عظيم في أمره وأنه كان على حق.

قال البغوي فلما قتل حبيب غضب الله عليهم وعجل لهم النقمة فأمر جبرئيل فصاح بهم صيحةً واحدة فماتوا عن آخرهم وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي قوم حبيب ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من زائدة أي بعد إهلاكه ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأولى زائدة

لتأكيد النفي والثانية للإبتداء يعني ما أنزلنا إلا هلاكهم جنداً من الملائكة كما أرسلنا يوم بدر والخندق بل كفينا أمرهم بصيحة ملك وفيه استحقاره هلاكهم وإيماء بتعظيم الرسول عليه السلام ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ ما نافية أي ما كان شأننا في إهلاك قوم إنزال جند فإن الأمر أيسر من ذلك وإنما أنزلنا الأجناد لنصرك بشارةً وإكراماً لك وتسكيناً لقلبك قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ﴾(١) وقيل ما موصولة معطوفة على جند يعني ما أنزلنا على قومه ما كنا منزلين على من قبلهم من حجارة أو ريح أو أمطار شديدة ﴿إِن كَانَتْ﴾ أي ما كانت الأخذة أو العقوبة ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صاح بها جبرئيل، قرأ الجمهور بالنصب على أنه خبر كان وأبو جعفر بالرفع جعل الكون تامة بمعنى الوقوع، قال البغوي قال المفسرون أخذ جبرئيل بعضاً وأتى باب المدينة ثم صاح صيحةً واحدةً ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ أي ميتون، شبهوا بالنار لأن الحياة يتعلق بالحرارة الغريزية فإذا خمدت الحرارة الغريزية مات وجملة ما أنزلنا عطف على قوله ﴿وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى﴾ وجملة ما كنا منزلين معترضة وجملة إن كانت إلا صيحة تعليل والفاء للسببية يعني فاجئت الصيحة وقت خمودهم.

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ﴾ الظرف صفة للحسرة وجعلت الحسرة منادى تنبيهاً للمخاطبين على وجوب الحسرة عليهم وتنكيرها للتعظيم كأنَّه قيل يا حسرة أي حسرة تعالى فهذه من الأحوال التي من حقها أن تحضري فيها وهي ما دل عليه ﴿ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون﴾ إستثناء مفرغ حال من الضمير المنصوب أو من رسول أو منهما والإستثناء يعني الشرط والجزاء يعني كلما يأتيهم رسول يستهزءون به، والجملة تعليل للحسرة فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء أن يتحسروا وأن يتحسر عليهم المتحسرون ويتلهف على حالهم الملائكة والمؤمنون من الثقلين ويجوز أن يكون تحسراً من الله عليهم على سبيل الإستعارة لتعظيم جنايتهم على أنفسهم ويؤيده قراءة يا حسرتا، وقيل المنادى محذوف وحسرةً منصوب بفعل مقدر تقديره يا أيها المخاطبون تحسروا حسرةً على العباد، والحسرة شدة الحزن والندامة، قال البغوي فيه قولان أحدهما يقول الله يا حسرة وندامةً وكآبة على العباد يوم القيامة لما لم يؤمنوا بالرسل والآخر أنه من قول الهالكين، قال أبو العالية لما عاينوا العذاب قالوا يا حسرةً على العباد واللام في العباد للعهد والمراد بهم أهل أنطاكية أو كل من لم يؤمن بالرسل واستهزأ بهم فهو تعريض

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٠.

لأهل مكة ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ ألم يعلموا وهو معلق عن قوله ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ لأن كم لا يعمل فيما قبلها وإن كانت خبرية لأن أصلها الإستفهام فهو يستدعي صدر الكلام والضمير في لم يروا لأهل مكة ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بدل اشتمال من كم على المعنى أي الم يروا كثرة إهلاكنا من قبلهم ألم يروا أنهم غير راجعين إليهم، ولمَّا كان في قوله ﴿أنهم إليهم لا يرجعون﴾ إيهاماً إلى أن الموتى لا يرجع أبداً ندفع ذلك الوهم قال ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يوم القيامة، قرأ عاصم وحمزة لما بالتشديد هاهنا وفي الزخرف والطارق وأخفها ابن عامر إلا في الزخرف في رواية ابن ذكوان ووافق أبو جعفر في الطارق، والباقون بالتخفيف فمن قرأ بالتشديد فإن نافية ولمَّا بمعنى إلاَّ ومن قرأ بالتخفيف فإن مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة وما مزيدة للتأكيد وجميعٌ فعيل بمعنى مفعول ولدينا ظرف له أو لمحضرون.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ قرأ نافع بالتشديد ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بالمطر خبر للأرض والجملة خبر آية وصفة للأرض إذ لم يرد بها معينة فهو كقوله ولقد أمر على اللئيم يسبني، والأرض مبتدأ خبرها آية أو خبر لكونها نكرة والآية مبتدأ والجملة معطوفة على قوله وإن كلٌ لما، وجاز أن يكون أحييناها استئنافاً لبيان كونها آية ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنس الحب كالحنطة والشعير ونحو ذلك ﴿فمنه﴾ أي من الحب ﴿يَأْكُلُونَ﴾ قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم ما يؤكل ويعاش به ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أي من أنواع النخيل والعنب ولذلك جمعهما دون الحب فإن الدال على الجنس مشعر بالإختلاف

ولا كذلك وذكر النخيل دون التمر ليطابق الحب والأعناب لاختصاص النخيل بمزيد النفع وآثار الصنع ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيون فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه عند الأخفش من زائدة ﴿لِيَأْكُلُوا﴾ متعلق بفجرنا ﴿مِن ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر ما ذكر وهو الجنات، وقيل الضمير لله على طريقة الإلتفات والإضافة إليه لأن الثمر بخلقه، قرأ حمزة والكسائي ثُمُرِهِ بضمتين وهو لغة فيه أو جمع ثمار ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عملت بغيرها ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ عطف على ثمره وما موصولة والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما وقيل ما نافية والمراد أن الثمر بخلق الله تعالى بفعلهم ويؤيد الأول قراءة الكوفيين بلا هاء فإن حذفه من الصلة أحسن عن غيرها ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أينكرون إنعام الله فلا يشكرون وحيث كان إنكاراً على ترك فهو أمر بالشكر ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ أي الأنواع والأصناف ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ من النبات والشجر ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي الذكر والأنثى ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ما خلق الله في البحر والبر ولم يطلع عليها أحداً.

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ﴾ على قدرتنا ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي ننزع ونكشط وذلك أن الأصل هي الظلمة والنهار داخل عليها بطلوع الشمس فإذا غربت فكأنه مسلخ النهار من الليل وظهرت الظلمة فانسلخ هاهنا مستعار من سلخ الجلد، والكلام في إعرابه مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿آية لهم الأرض من الميتة﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ عطف على نسلخ منه النهار فغاصوا وقت كونهم داخلين في الظلمة يعني يذهب بالنهار ويجيء بالليل ﴿والشمس﴾ عطف على الليل ﴿تَجْرِي﴾ في فلكها مثل جري الحوت في الماء صفة للشمس بناء على تنكيره أو مبتدأ وخبر والجملة معترضة لبيان سبب وجود الليل والنهار ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ مصدر ميمي أو ظرف يعني تجري لاستقرار لها على نهج مخصوص أو لموضع استقرارها وهي منتهى دورها تشبهت بالمسافر إذا قطع مسيره أو مستقرها كبد السماء قبيل الزوال فإن حركتها توجد أبطأ بحيث يظن أن لها هُناك وقفة أو مستقرها نهاية ارتفاعها في السماء في الصيف ونهاية هبوطها في الشتاء، أو لمنتهى مقدر بكل يوم من المشارق والمغارب فإن لهافي دورها ثلاث مائة وخمساً وستين مشرقاً ومغرباً تطلع كل يوم من مطلع وتغرب في مغرب ثم لا تعود إليهما إلى العام القابل أو لمنقطع جريها عند خراب الدنيا، وهذه التأويلات كلها مبنية على أنها في ظاهر الحال لا تستقر في وقت من الأوقات ويدل عليه قراءة ابن مسعود ما رواه البغوي عن عمر بن دينار عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿والشمس

تجري لا مستقر لها﴾ لكن ورد في الحديث الصحيح عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**مستقرها تحت العرش**» رواه البخاري في الصحيح، وروى البغوي عن أبي ذر عن النبيّ ﷺ أنه قال **حين غربت الشمس أتدري أين تذهب هذه؟ قلتُ الله ورسوله أعلم**، قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد ولا تقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها ويقال لها إرجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ قال: «**مستقرها تحت العرش**»[1] متفق عليه.

ومعنى الحديث والله أعلم أن الشمس بعد غروبها قبل طلوعها تسجد تحت العرش فيؤذن لها في الطلوع من جانب المشرق فتطلع ويوشك أن لا يؤذن لها بالطلوع من المشرق بل يؤذن لها بالطلوع من المغرب فحينئذ تطلع من مغربها وهي آية من آيات الساعة، لا يقال إن مقدار الليل من وقت غروبها إلى طلوعها يتفاوت بتفاوت الأقاليم حتى أن تحت القطب الشمالي من وراء بلغار إذا كانت الشمس عند رأس السرطان يكون الليل بحيث لا يكون هناك وقت العشاء بل بعد غروب الشمس إذا غاب الشفق من جانب طلع الصبح من جانب فأيُّ وقت يتصور فيه الشمس ذاهبة تحت العرش ساجدة، قلتُ: ليس المراد أن الشمس تدوم ساجدة من وقت غروبها إلى وقت طلوعها فجاز أن يكون وقت من الأوقات يكون ظلمة الليل شاملة لجميع الأقاليم وذلك عند منصفها وحينئذ يذهب الملائكة الموكلون على الشمس بها إلى تحت العرش فتخر هناك ساجدةً ثم يؤذن لها بالطلوع واختلاف مقدار الليل باختلاف الأقاليم إنما يتعلق باختلاف مبدأ الليل ومنتهاه والله أعلم، والقول بأن الحديث من المتشابهات أو أن المراد بالسجود هو الإنقياد أو نحو ذلك يأباه سياق الحديث ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري على هذا التقدير المتضمن للحكمة التي يكل الفطن عن إحصائها ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيط علمه بكل معلوم.

﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ أي قدرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ أو قدرنا سيره في منازله قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والقمر بالرفع على أنه معطوف على الشمس يعني آية لهم الليل وآية لهم الشمس وآية لهم القمر والجملة الواقعة بعدها كالجملة الواقعة بعد الشمس وقرأ الباقون بالنصب بإضمار فعل فسره بقوله: ﴿قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل كل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ (٤٨٠٣)، وأخرجه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩).

ليلة في واحدة منها لا يتخطئه ولا يتقاصر عنه فإذا كان في آخر منازله دقّ واستقوس ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ أي الشمراخ المعوج فعلون من الإنعراج بمعنى الإعوجاج ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾ العتيق قيل ما هي عليه حول فصاعداً ثم يكون القمر تحت شعاع الشمس في المحاق ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ أي يصح لها ويتيسر ﴿أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ قال البيضاوي أي في سرعة سيره وهذا مبني على ما قالت الفلاسفة إن القمر أسرع سيراً من الشمس فإن دورها يتم في شهر ودور الشمس يتم في سنة وعندي الأمر بالعكس كما سنبين إن شاء الله تعالى فالأولى أن لا يقيد السير بالسرعة بل يقال الشمس لا تدرك القمر في سيره المخصوص حتى يتحد سيرهما فإن ذلك يخل بتكون النباتات وتعيش الحيوانات أو في آثاره ومنافعه أو مكانه بالنزول إلى محله أو سلطانه فتطمس نوره، قلتُ: وجاز أن يكون المراد بالشمس النهار وبالقمر الليل وهذا يستقيم المقابلة يعني لا ينبغي للنهار أن يدرك الليل أي يسبقها ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ أي هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيء أحدهما قبل وقته كذا تستفاد من كلام البغوي ﴿وَكُلٌّ﴾ التنوين عوض المضاف إليه أي كل واحد منهما، وقال البيضاوي تقديره كلهم والضمير للشموس والأقمار فإن اختلاف الأحوال يوجب تعدداً ما في الذات ولو بالإعتبار أو إلى الكواكب فإن ذكرهما مشعر بها ﴿فِي فَلَكٍ﴾ واحد من الأفلاك وهي السماء الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[1] ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ كما يسبح السمك في الماء.

وهذا صريح في أن الشمس والقمر والكواكب سائرة في الفلك بقسر قاسر من الملائكة أو بالإرادة لا أنها مرتكزة في السماء كالمسامير لا تتحرك إلا بتحرك السماء حركة وضعية كما يقول به الفلاسفة بناءً على أن السباحة يستلزم الخرق والالتئام وزعموا أنه محال، فاستدلوا بتعدد الحركات للكواكب على تعدد السماوات على حسب تعدد الحركات فقالوا السماوات تسعة كلها منطبقة بعضها على بعض مثل قشور البصل وقالوا السماء التاسع الذي هو حاد للجميع يتحرك من المشرق إلى المغرب على منطقة وقطبين بحيث يتم دائرة سيره في كل يوم وليلة مرةً تقريباً وسائر. . . . . السماوات تسير بسيره قسراً ولكل منها حركة بالطبع من المغرب إلى المشرق على منطقة أخرى وقطبين آخرين ويحصل التقاطع بين الأقطاب الأربعة قطبي فلك الثوابت وقطبي فلك الأفلاك والشمس يلازم لمنطقة فلك الثوابت وينقسم منطقة فلك الثوابت إلى إثني عشر حصة يسمون كل حصة منها برجاً

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

ويسمون ذلك الفلك فلك البروج، قالوا ذلك لمَّا رأوا أن الكوكب لا يتم دائرة سيرها في يوم وليلة، ولما رأوا أن الكواكب كلها غير السبعة التي يسمونها سيارات لا يختلف نسبة بعضها مع بعض قط وأن سيرها ينقص من الدائرة في اليوم والليلة قليلاً غاية القلة جداً حكموا بأن كلها مرتكزة في فلك واحد وهي السماء الثامنة فلك البروج وإن سيرها كان لا سير ولذا سموها ثوابت وفلكها فلك الثوابت، ولمَّا رأوا السبعة ينقص سيرها في اليوم والليل من الدائرة نقصاناً ظاهراً بحيث يرون القمر يسير في ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين دائرة والشمس تسير في ثلاث مائة وخمس وستين يوماً ثلاث مائة وأربعاً وستين دائرة وهكذا أن أفلاكها سبعة كلها سائرة من المغرب إلى المشرق ولأجل ذلك يرى سيرها في اليوم والليلة ناقصة من الدائرة وكلما رأوا نقصان سيرها من الدائرة أزيد حكموا بكون سيرها أسرع فقالوا فلك القمر أسرع سيراً فإن سيرها إلى المشرق يقطع الدائرة في شهر وفلك الشمس يقطع في سنة ثلاث مائة وخمس وستين يوماً وهكذا حكموا في سائر السيارات، ولمَّا رأوا خمساً من الكواكب العطارد والزهرة والمشترى والمريخ والزحل تارةً سيرها أزيد من دائرة وتارةً أنقص من دائرة وتارةً سيرها دائرة تامة لا زائد ولا ناقص سموها خمسة متحيرة وأثبتوا لها تدويرات سير أعلاها يخالف سيراً سفلها كل ذلك بُيّنَ في علم الهيئة.

ولمَّا دلَّت النصوص القطعية على أن عدد السماوات سبع لا مزيد عليها بحيث يكفر جاحدها وعلى جواز الخرق والالتئام على الأفلاك بحيث يكفر جاحدها أيضاً بل على وقوعها حيث قال الله تعالى: ﴿إذا السماء إنشقت﴾ ﴿إذا السماء انفطرت﴾ ﴿وانشق القمر﴾[(١)] ونحو ذلك، ودلت الأحاديث الصحيحة على أن السماوات غير منطبقة بعضها على بعضها بل بين كل منها مسافة بعيدة بحيث يفسق جاحدها روى أحمد والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً حديثاً طويلاً وذكر رسول الله ﷺ **«بعُد ما بين الأرض والسَّماء وبين كل سماءين خمس مائة سنة»**[(٢)] وروى الترمذي وأبو داوود عن العباس بن عبد المطلب مرفوعاً حديثاً طويلاً ذكر فيه رسول الله ﷺ **«بعدما بين الأرض والسماء وبين كل سمائين إما واحدة وإما اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة»**[(٣)] (ولعل اختلاف ذلك باعتبار اختلاف سير السائرين

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحديد (٣٢٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحاقة (٣٣٢٠)، وأخرجه أبو داود في كتاب: السنة، باب: في الجهمية (٤٧١٠).

سرعة وبطوءاً وجب القول ببطلان علم الهيئة وبأن من اعتقدها يخاف عليه الكفر بالكتاب والسنة وإذا ظهر جواز الخرق والالتئام في السماوات لا مانع من أن يقال أن الكواكب كلها في السماء الدنيا كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾(١) وإن كلاً منها في فلك يسبحون وأن سير أكثرها على مقدار واحد قريباً من الدائرة التامة وسير سبعة فيها على مقادير مختلفة على حسب ما يرى ولا مانع من القول بأن الخمسة تارة يسير زائداً وتارة ناقصاً على حسب إرادة الله تعالى وهي الخنس الجواري الكنس والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وآية لهم أنا حملنا ذريتهم﴾ قرأ أهل المدينة والشام ويعقوب ذُرّيَّاتِهم بالجمع وكسر التاء والباقون ذُرِّيَّتَهُمْ على الإفراد بفتح التاء ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي المملوء، الظاهر أن المراد بالذرية أولادهم الذين يتبعونهم إلى تجاراتهم أو صبيانهم ونساؤهم الذين يستصحبونهم فإن الذرية يطلق عليهن لأنهن ترارعها، ورد في الحديث أنه ﷺ «رأى امرأة مقتولة فقال ما كانت هذه تقاتل بالحق خالداً فقل له لا تقتل ذرية ولا عسيفاً»(٢) والمراد بالذرية في هذا الحديث النساء لأجل الامرأة المقتولة وفي حديث عمر «حجوا بالذرية لا تأكلوا أرزاقها وتذروا أرباقها في أعناقها» أي حجوا بالنساء كذا في النهاية، والمراد بالفلك السفائن الصغار والكبار وتخصيص الذرية بالذكر لأن إستقرارهم في السفن أشق وتماسكهم فيها أعجب، وقال البغوي المراد به سفينة نوح عليه السلام والمراد بالذرية الآباء واسم الذرية يقع على الآباء كما يقع على الأولاد، وقال البيضاوي وعلى تقدير أن يراد بالفلك سفينة نوح عليه السلام معنى الآية أن الله تعالى حمل آباءهم وحملهم وذريتهم في أصلابهم وتخصيص الذرية بالذكر لأنه أبلغ في الإمتنان وأدخل في التعجب مع الإيجاز ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي مثل الفلك مطلقاً أو مثل ذلك نوح ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبل فإنها سفائن البر أو من الفلك والسفن والرواق على هيئة سفينة نوح ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ مع اتخاذ السفائن ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ جزاء لشرط محذوف تقديره وإن نغرقهم فلا صريخ أي لا مغيث لهم يحرسهم عن الغرق أو فلا استغاثة كقولهم أتاهم الصريخ ﴿ولا هم ينقذون﴾ عطف على لا صريخ لهم أي لا ينجون من الغرق، قال ابن

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب: الجهاد، باب: في قتل النساء (٢٦٦٧)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الجهاد، باب: الفارة والبيات وقتل النساء والصبيان (٢٨٤٢).

عباس ولا أحد ينقذهم من عذابي ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا﴾ استثناء مفرغ منصوب على العلية لا ينقذون لشيء إلا لرحمة منا ولتمتيع ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي زمان قُدِر لآجالهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قال ابن عباس ما بين أيديكم يعني الآخرة فاعملوا لها وما خلفكم يعني الدنيا فأحذروها ولا تغتروا، وقيل ما بين أيديكم يعني وقائع الله فيما قبلكم من الأمم وما خلفكم عذاب الآخرة وهو قول قتادة، وقيل المراد به نوازل السماء ونوائب الأرض كقوله تعالى: ﴿أولم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾[1] وقيل المراد به عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقيل عكسه وقيل ما تقدم من الذنوب وما تأخر ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي لتكونوا راجين رحمة الله وجواب إذا محذوف تقديره إذا قيل لهم اتقوا أعرضوا بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ من الأولى زائدة لتأكيد النفي والثانية للتبعيض ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ استثناء مفرغ مثل قوله: ﴿إلا كانوا به يستهزؤون﴾ هذه الآية في مقام التعليل لما سبق يعني إذا قيل لهم اتقوا أعرضوا لأنهم اعتادوه وتمرنوه والجملة الشرطية أعني قوله وإذا قيل لهم مع ما عطف عليه أعني وما تأتيهم من آية عطف على قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عطف على الشرطية السابقة يعني كان المؤمنون يقولون لكفار مكة ﴿أَنفِقُوا۟﴾ على المساكين ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الأموال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه وضع المظهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بكفرهم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ يعني أن الله لم يرزقهم

(١) سورة سبأ، الآية: ٩.

مع قدرته عليه فنحن نوافق مشيئة الله فلا نطعمهم (قيل قاله مشركوا قريش حين استطعمهم فقراء المؤمنين أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن وعبد وبن حميد وابن المنذر عن إسماعيل بن خالد) وهذا قول باطل فإن الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر بعضهم إبتلاءً فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً وأمر الغني بالإنفاق لا حاجةً إلى ما لهم ولكن ليبلو الغني بالفقير فيما فرض له في مال الغني ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمه في خلقه ولا يدرك العقول كل حكمة في أفعاله ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث أمرتمونا ما يخالف مشيئة الله ويجوز أن يكون جواباً لهم من الله تعالى أو حكاية لجواب المؤمنين لهم.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي القيامة والبعث عطف على الشرطية السابقة إستفهام إستبطاء ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الأخبار بإتيانه جواب الشرط محذوف يعني فأنبئونا عن وقت إتيانه خطاب للرسول ﷺ وللمؤمنين ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ حال من فاعل يقولون يعني يقولون ذلك في حال ما ينتظرون ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ إستثناء مفرغ منصوب على المفعولية، قال ابن عباس يريد به النفخة الأولى فإن قيل إن الكفار لم يكونوا يعتقدون النفخة فكيف ينتظرونها؟ قلنا: هذه الآية كناية عن عدم تركهم المعاصي أبداً حتى يموتون أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون فإنهم لمَّا لم ينتهوا عمَّا نهوا عنه قبل ذلك فكأنّهم ينتظرون لأجل ترك المعاصي صيحة الصعق ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ صفة لصيحة واحدة والضمير راجع إلى الناس المفهوم مما سبق وكذا كل ضمير بعده ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ حال من الضمير المنصوب في تأخذهم أي يختصمون في أمور الدنيا من متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شيء من إتيانها، أصله يختصمون فسكنت التاء وأدغمت ثم كسرت الخاء لالتقاء الساكنين على قراءة عاصم وابن ذكوان والكسائي، وقرأ ابن كثير وورش وهشام ويعقوب بفتح الخاء بنقل حركة التاء إلى الخاء والإدغام وقرأ قالون وأبو عمرو باختلاس فتحة الخاء وتشديد الصاد وقرأ قالون أيضاً وأبو جعفر بإسكان الخاء كأنهما جوّزا التقاء الساكنين إذا كان الثاني مدغماً، أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«لتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعان ولا يطويانه ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومنّ الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»**[1]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، (٦٥٠٦)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: قرب الساعة (٢٩٥٤).

وأخرج الفريابي عنه في هذه الآية قال تقوم الساعة والناس في أسواقهم يتبايعون ويذرعون الثياب ويحلبون اللقاح وفي حوائجهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ عطف على تأخذهم ورابط الموصوف محذوف تقديره فلا يستطيعون بعدها والفاء للسببية ﴿تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الزبير بن العوام قال إن الساعة تقوم والرجل يذرع الثوب والرجل يحلب الناقة ثم قرأ: ﴿لا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ يعني لا يقدرون على أن يوصوا في شيء من أمورهم ولا أن يرجعوا إلى أهلهم فيروا حالهم بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي ينفخ، ذكر صيغة الماضي لتيقن وقوعه عطف على مضمون فلا يَسْتَطِيعُونَ يعني يموتون من ساعتهم وينفخ في الصور مرةً ثانيةً وبين النفختين أربعون سنةً كذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «**ما بين النفختين أربعون، قالوا يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال أبيتُ قالوا أربعون شهراً؟ قال أبيتُ، قالوا أربعون عاماً؟ قال أبيت**»[١] الحديث، وروى ابن أبي داوود عن أبي هريرة حديثاً مرفوعاً وفيه بين النفختين أربعون عاماً ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ جمع جدث وهو القبر ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ أي يخرجون والنسل في الأصل الإنفصال عن الشيء يقال نسل الوبر من البعير ومنه يقال للولد النسل لانفصاله عن والده وقيل معناه يسرعون، في القاموس الماشي ينسُل بضم العين وكسره نسلاً ونسيلاً ونسلاناً يسرع. ﴿قَالُوا۟﴾ يعني يقول الكفار حين يبعثهم أورد لفظ الماضي لتيقن وقوعه ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ ينادون الويل يعني يا ويل احضر فإن هذا أوانك أو يقال أن المنادى محذوف تقديره لا يا أيها المخاطب ويلنا وهو مصدره فعل له من لفظ منصوب بفعل مقدر في معناه، قال في القاموس معناه حلول الشر، وقال بعض المحققين لم يرد في اللغة أن ويلاً وضع لهذا المعنى بل هو اسم لوادٍ في جهنم لما روى أحمد والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقي وابن أبي الدنيا وهناد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ويل وادٍ في جهنم يهوي به الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره**»[٢] وروى سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود قال الويل واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار جعل للمكذبين، وأخرج ابن جبير عن عثمان بن عفان عن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: التفسير، باب: ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً﴾ (٤٩٣٥)، وأخرجه مسلم في كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: ما بين النفختين (٢٩٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة الأنبياء (٣١٦٤).

رسول الله ﷺ «الويل جبل في النار» وأخرج البزار بسند ضعيف عن سعد بن أبي وقاص قال قال رسول الله ﷺ: «**إن في النار حجراً يقال له ويل يصعد عليه العرفاء وينزلون**» ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ سكت حفص هاهنا سكتة لطيفة والوقفة عليها عند غيره أحسن، قال ابن عباس وقتادة إنما يقولون هذا لأن الله يرفع العذاب عنهم بين النفختين فيرقدون فإذا بعثوا بعد النفخة الآخرة عاينوا القيامة ودعوا بالويل، وقول ابن عباس هذا دفع لما قالت المعتزلة إن هذه الآية تدل على نفي عذاب القبر فإنها تدل على أنهم كانوا كالنيام، وقال أهل المعاني إن الكفار إذا عاينوا جهنم بأنواع عذابها صارت عذاب القبر في جنبها كالنوم فقالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ مبتدأ وخبر وما مصدرية بمعنى المفعول أو موصولة والرابط محذوف يعني هذا ما وعد به الرَّحمانُ وَصَدَقَ فيه المُرسَلُونَ وجاز أن يكون صَدَقَ المرسلون جملة مستأنفة معطوفة على جملة فهذا إقرار منهم حين لا ينفعهم الإقرار، وقيل هذا قول الملائكة جواباً لهم، وقال مجاهد هذا قول المؤمنين في جوابهم وإنما عدل عن سن الجواب تذكيراً لكفرهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً بأن الذي يهمهم هو السؤال عن البعث دون الباعث كأنّهم قالوا بعثكم الرحمن الذي وعدكم بالبعث وأرسل إليكم الرسل فصدقوكم وليس الأمر كما تظنون أنه بعث النائم فيهكم السؤال عن الباعث بل هو البعث الأكبر ذو الأهوال، وجاز أن يكون هذا صفة لَمرقَدِنَا ومَا وَعَدَ خبر محذوف أو مبتدأ خبره محذوف يعني ما وَعَدَ الرَّحمَن حق وَصَدَقَ المُرسَلُونَ وعلى هذا التأويل لا يلائم السكتة أو الوقف على مَرقَدِنا ﴿إِن كَانَتۡ﴾ أي ما كانت الفعلة في بعثهم ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هي النفخة الأخيرة ﴿فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ﴾ أي مجموعون ﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ خبر بعد خبر وفي ذلك تهوين لأمر البعث والحشر واستغنائهما عن الأسباب التي ينوطان بها فيما يشاهدونه ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٥٤﴾ حكاية لما يقال لهم تصويراً للموعود وتمكيناً له في النفوس وكذا قوله.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ۝٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ

تَكۡفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ
يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ
نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرۡهُ
نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ
وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٍ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بسكون الغين والباقون بضمها وهما لغتان مثل السُّحتِ وَالسُّحُتِ، واختلفوا في معنى الشغل قال ابن عباس في افتضاض الأبكار، وقال وكيع بن الجراح في السَّماع، وقال الكلبي في شغل عن أهل النار وعمَّا هم فيه لا يهمهم أمرهم ولا يذكرونهم، وقال الحسن شغلوا بما في الجنة من النعيم عمَّا فيه أهل النار من العذاب، وقال ابن كيسان في زيارة بعضهم بعضاً وفي ضيافة الله تعالى، والأولى أن يقال في شغل ما يشتهون فالصوفية العلية الذين لا مقصود لهم إلا الله تعالى شغلهم الانهماك والاستغراق في التجليات الذاتية على جهم وغيرهم كان شغلهم بالسماع والرياح والأكل والشرب والجماع على حسب شهواتهم ورغباتهم، أخرج أبو نعيم عن شيخ طريقتنا أبي يزيد البسطامي أنه قال إن لله خواصاً من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا كما يستغيث أهلنا بالخروج من النار، وفي تنكير شغل وإبهامه تعظيم لما هم فيه من البهجة والتلذذ وتنبيه على أنه أعلى ممَّا يحيط به الأفهام ويعرب عن كنهه الكلام ﴿فَٰكِهُونَ﴾ خبر بعد خبر لإن.

قرأ أبو جعفر فكهون بغير ألف حيث كان ووافق حفص في المطففين وفيه مبالغة والباقون بألف وهما لغتان مثل الحَاذِرِ والحَذِرِ يعني ناعمون متلذذون في النعمة من الفكاهة وقال مجاهد والضحاك معجبون بما هم فيه وعن ابن عباس قال هم فرحون ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ﴾ قرأ حمزة والكسائي ظلل بغير ألف جمع ظلة والباقون ظلال بالألف وكسر الظاء جمع ظل وهو موضع الذي لا يقع عليه الشمس كشعاب أو ظلة وهو ما يترك عن الشمس كقباب ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ يعني السرد في الحجال واحدتها أريكة قال البغوي قال ثعلب لا يكون أريكة حتى يكون عليها حجلة، وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال لا يكون أريكة حتى يكون السرير في الحجلة فإن كان السرير بغير حجلة لا يكون أريكة، وإن كان حجلة بغير سرير لا يكون أريكة فإذا اجتمعا كانت أريكة وأخرج البيهقي عن مجاهد قال الأرائك من لؤلؤ وياقوت الجار والمجرور متعلق بقوله ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ هم مبتدأ

خبره في ظلال وعلى الأرائك جملة مستأنفة أو خبر ثان أو الخبر متكئون والجاران صلة له أو هم تأكيد للضمير في شغل أو فاكهون وعلى الأرائك متكئون خبر آخر لإن، وأزواجهم عطف على هم للمشاركة في الأحكام أو في ظلال حال من المعطوف والمعطوف عليه.

﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي ما يطلبون لأنفسهم يقتنعون من الدعاء أو يتمنون من قولهم إدع على ما شئت بمعنى منه على أو ما يدعون في الدنيا من الجنة ودرجاتها، وما موصولة أو موصوفة مبتدأ وخبرها لهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدل منها ويجوز أن يكون خبراً لهم أو الخبر المحذوف أي هم سلامٌ ومبتدأ محذوف الخبر أي لهم سلامٌ ﴿قَوْلًا﴾ يعني يقول الله قولاً أو يقال لهم قولاً كائناً ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ والمعنى أن الله يسلّم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك مطلوبهم ومقناهم ويحتمل نصبه على الأختصاص، أخرج ابن ماجه وابن أبي الدنيا والدارقطني والآجري عن جابر قال قال النبيّ ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع عليهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة وذلك قوله تعالى:** ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ فقال فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحجب عنهم ويبقى نوره وبركته في ديارهم»(١) قال السيوطي إشرافه سبحانه وإطلاعه منزه عن المكان والحلول، قال البغوي يسلم عليهم الملائكة من ربهم وقال مقاتل يدخل الملائكة على الجنة من كل باب سلامٌ عليكمُ يا أهل الجنة من ربكم الرحيم يعطيهم السلامة أسلموا السلامة الأبدية.

﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ قال مقاتل والسديُّ والزجاج يعني اعتزلوا من الصالحين يعني يُساق المؤمنون إلى الجنة والمجرمون إلى النار عطف على مضمون ما سبق، وقال الضحاك: إن لكل كافر في النار بيتاً يدخل ذلك البيت ويردم بابه بالنار فيكون فيه أبد الآبدين لا يرى ولا يرى، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا والبيهقي عن مسعود قال إذا ألقي في النار من هو مخلد فيها جُعلوا في توابيت من حديد فيها مسامير من حديد ثم جعلت تلك التوابيت في توابيت من حديد ثم قذفوا في أسفل الجحيم فما يرى أحدهم أنه يعذب غيره، وأخرج أبو نعيم والبيهقي عن سويد بن عفلة نحوه ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ ألم آمركم على لسان المرسلين استفهام للإنكار وإنكار النفي إثبات يعني قد

---

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب: فيما أنكرت الجهمية (١٨٤).

عهدتُ إليكم والجملة في مقام التعليل لتميزهم من المؤمنين ﴿يا بني آدم أن لا تعبدو الشيطان﴾ أي لا تطيعوه في معصية الله أن مفسرة للعهد فإنه في معنى القول ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة تعليل للمنع عن طاعته فيما يحملهم عليه ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ عطف على ولا تعبدوا ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم أو إلى عبادته تعالى والجملة استئناف لبيان المقتضى للعهد بشقيه أو بالشق الأخير والتنكير للمبالغة والتعظيم أو للتبعيض فأن التوحيد سلوك بعض الطريق المستقيم ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ﴾ الشيطان ﴿مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ قرأ أهل المدينة وعاصم بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ويعقوب بضم الجيم والباء وتشديد اللام وابن عامر وأبو عمرو بضم الجيم وسكون الياء، والباقون بضم الجيم والباء بغير تشديد وكلها لغات ومعناها الخلق والجماعة أي خلقاً ﴿كَثِيرًا﴾ جواب قسم محذوف رجوع إلى بيان معاداة الشيطان وظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل فإنه إنما يأمر بالفحشاء والمنكر وترك عبادة الخالق الرازق الضارّ النافع إلى عبادة من لا يضر ولا ينفع وترك اتباع النبيّ الناصح المؤيد بالمعجزات إلى إتباع هوى النفس ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ عداوته مع وضوحها، الإستفهام للتوبيخ وجملة ولقد أضل معترضة للتوبيخ ويقال لهم لما دنوا من النار ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا﴾ أُدخلوها وذوقوا حرها ﴿ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بكفركم في الدنيا ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ جملة فيها التفات من الخطاب إلى الغيبة، أخرج مسلم عن أنس قال كنا مع رسول الله ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون فيما أضحك**»؟ قلنا الله ورسوله أعلم، قال: «**من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم فيقول بلى فيقول فإني لا أجيز على نفسي إلا بشاهد مني، فيقول كفى بنفسِك اليوم عليكَ شهيدًا وبالكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فينطق بأعماله ثم يخلَّى بينه وبين الكلام فيقول بُعْداً لكنَّ وسحقاً فعنكُنَّ أناضل**»(١) وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال قالوا يا رسول الله «هل نرى ربَّنَا يوم القيامة؟ قال هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ليست في سحابة؟ قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليست في سحابة؟ قالوا لا، قال فوالذي نفسي بيده لا تضارُّون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، فيأتي العبد فيقول أي فلان ألم أكرمك ألم أسودك ألم أزوجك ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأتركك تترأس وتربع، قال بلى يا رب، فيقول أظننت أنك

(١) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٩).

ملاقي؟ فيقول لا، فيقول إني أنساك كما نسيتني ثم يلقي الثاني فيقول له مثل ذلك، ويقول مثل ذلك ثم يلقي الثالث فيقول له مثل ذلك فيقول آمنتُ بك وبكتابك وبرسولك وصلّيتُ وصمتُ وتصدقتُ ويثني ما استطاع فيقال أفنبعث عليك شاهداً فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد علي، فيختم على فيه ويقول لفخذه إنطقي فتنطق فخذه ولحمه وعظمه بعمله ما كان ذلك قال وذلك المنافق وذلك بعذر عن نفسه وذلك الذي سخط الله عليه»[١] وأخرج أحمد بسند جيد والطبراني عن عقبة بن عامر مرفوعاً «إن أول عظم من الإنسان يتكلم يوم يختم على الأفواه فخذه من الرجل الشمال» وفي حديث معاوية بن حيدة عند أحمد والنسائي والحاكم والبيهقي قال: **«تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الغلام فأول ما يتكلم من الأدمي فخذه وكفه»** وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال يُدعى المؤمن للحساب يوم القيامة فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه فيعترف فيقول أي رب عملتُ وعملتُ فيغفر الله ذنوبه ويستره فيها، قال فما على الأرض خليقة يرى من تلك الذنوب شيئاً وتبدو حسناته والناس كلهم يرونها، ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عمله فيجحده ويقول أي ربّ وعزتك كتب عليَّ هذا الملك ما لم أعمل فيقول له عملتَ كذا في يوم كذا في مكان كذا؟ فيقول: لا وعزتك فإذا فعل ذلك ختم علي فيه، قال أبو موسى فإني أحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى ثم تلا: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ الآية، أخرج أبو يعلى والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إذا كان يوم القيامة عير الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا، فيقال أحلفوا فيحلفون ثم يصمتهم الله تعالى ويشهد عليهم ألسنتهم فيدخلهم النار»**.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ يعني ولو شئنا طمس أعينهم ﴿لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي أذهبنا أعينهم الظاهرة بحيث لا يبدو لها جفن ولا شق وهو معنى الطمس ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ عطف على طمسنا أي إلى الطريق اعتادوا سلوكهم وانتصابه بنزع الخافض أو بتضمين الاستباق معنى الإبتداء أو جعل المسبوق إليه مسبوقاً على الاتساع أو على الظرفية ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الفاء للسببية والاستفهام للإنكار يعني فكيف يبصرون الطريق حينئذ أي لا يبصرون بسبب الطمس، قال البغوي هذا قول الحسن والسدّي، وقال ابن عباس وقتادة ومقاتل وعطاء ولو نشاءُ لفقأنا أعين ضلالتهم فأعميناهُمْ عن غَيّهم وحولنا أبصارهم من

---

(١) أخرجه مسلم في أوائل كتاب: الزهد والرقائق (٢٩٦٨).

الضلالة إلى الهدى أبصروا رشدهم يعني لم نشأ ذلك فأنى يبصرون رشدهم ﴿ولو نشاء لمسنخناهم على مكانتهم﴾ قرأ أبو بكر مكاناتهم بصيغة الجمع والباقون بالإفراد يعني ولو شئنا لجعلناهم قردةً وخنازير في منازلهم، وقيل يعني لو شئنا لجعلناهم حجارة وهم قعود في منازلهم لارواح لهم ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا﴾ أي ذهاباً ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ولا رجوعاً وضع الفعل موضعه للفواصل، وقيل ولا يرجعون عن تكذيبهم إلى التصديق ومعنى هذه الآية والآية السابقة على تأويل الحسن أنهم لكفرهم ونقضهم العهد أحقاء أن يفعل بهم ذلك لكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم في الدنيا واقتضاء الحكمة إهمالهم.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ أي من نطل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ﴾ قرأ عاصم وحمزة بضم النون الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف والتشديد من التنكيس، والباقون بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف مخففاً من المجرد والتنكيس أبلغ والنكس أشهر ومعناه نقلبه ﴿فِى ٱلْخَلْقِ﴾ يعني كان في بدء الأمر لا يزال يتزايد قوةً ونجعله في الآخر بحيث لا يزال يتزايد ضعفاً حتى يموت ﴿أفلا يعقلون﴾ عطف على مضمون الشرطية السابقة والإستفهام للإنكار يعني ينبغي أن يعقلوا ويعلموا أن من قدر على ذلك قدر على الطمس والمسخ فأنه مشتمل عليهما وزيادة غير أنه على تدرج قرأ نافع وابن ذكوان بالتاء على الخطاب لجري الخطاب قبله في قوله: ﴿ألم أعهد إليكم﴾ والباقون بالياء على الغيبة جرياً على قوله: ﴿لو نشاء لمسخناهم﴾.

قال البغوي قال الكلبي إن كفار مكة قالوا إن محمداً شاعر وما تقوله شعر فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ عطف على قوله إنك لمن المرسلين، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة يعني ما علمناه الشعر بتعليم القرآن فإنه غير مقفى ولا موزون وليس معناه مثل معنى الأشعار من التخيلات المرغبة والمنفرة والأقوال الكاذبة ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ أي ما يصح له أن يضيع وقته الشريف في إنشاء الشعر ورعاية الوزن والقافية، وأما ما روى الشيخان في الصحيحين من حديث البراء بن عازب قوله ﷺ: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»(١) ومن حديث جندب بن أبي سفيان «هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت»(٢) فاتفاقي من غير تكلف وتصنع وقعت قصد منه إلى ذلك ومثله لا يعد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من صف أصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر (٢٩٣٠)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: في غزوة حنين (١٧٧٦).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الجهاد والسير، باب: من ينكب في سبيل الله (٢٨٠٢)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين (١٧٩٦).

شاعراً وقد يقع مثله كثيراً في تضاعيف المنثورات على أن الخليل ما عدَّ المسطور من الرجز شعراً. هذا وقد روى أنه ﷺ حرك البائين من كذب وعبد المطلب وكسر التاء من دميت بلا إشباع وسكن التاء من لقيت، وقال البغوي ما كان يتزين له بيت شعر حتى إذا تمثل بيت شعر جرى على لسانه منكسرا، وروى البغوي عن الحسن أن النبيّ ﷺ كان يتمثل بهذا البيت كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً، فقال أبو بكر يا نبي الله قال الشاعر كفى الشيب والإسلام بالمرء ناهياً فأعاد كالأول فقال أبو بكر أشهد أنك رسول الله يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، وروى عن المقدام بن شريح عن أبيه قال قلتُ لعائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يتمثل شيئاً من الشعر؟ قالت كان يتمثل من شعر عبد الله بن رواحة قالت وربما قال: ويأتيك الأخبار من لم تزودي، وقال معمر عن قتادة بلغني أن عائشة سئلت هل كان النبيّ ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت كان الشعر أبغض الحديث إليه قالت ولم يتمثل بشيء من الشعر إلا ببيت أخي بني قيس بن مطرف.

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزودي

فجعل يقول ويأتيك من لم تزود بالأخبار قال أبو بكر ليس هكذا يا رسول الله فقال إني لستُ بشاعر وما ينبغي لي، وقيل الضمير للقرآن أي وما يصح للقرآن أن يكون شعراً ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظة وإرشاد من الله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ للفرائض والحدود والأحكام وإخبار الغيب من الماضي والمستقبل التي لا يمكن إتيانها من الشاعر بل من أحد من البشر ﴿لِّيُنذِرَ﴾ قرأ نافع وابن عامر ويعقوب بالتاء للخطاب أي لتنذر يا محمد بالقرآن وكذلك في الاحقاف ووافق ابن كثير في الأحقاف والباقون بالياء للغيبة متعلق بمضمون ما سبق يعني أنزلنا القرآن وأرسلنا محمداً لينذر القرآن أو الرسول ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي مؤمناً فإنه حي القلب يعقل الأشياء على ما هي عليه وأيضاً الحياة الأبدية بالإيمان وتخصيص الأبدية لأنه هو المنتفع به دون الكافر فإنه كالميت لا ينتفع به ولا يدرك الحسن من القبيح يحسب عبادة الأحجار وإتباعَ الشيطان حسناً وعبادةَ الخالق واتباعَ الرسول الناصح المؤيد بالمعجزات قبيحاً فيكون في الآخرة بحيث لا يموت ولا يحيي وللإشعار بأنهم أموات في الحقيقة جعلهم في مقابلة مَنْ كَانَ حَيّاً وقال ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ عطف على لينذر أي ليجب كلمة العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن

دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا
يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن
نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ
رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ
لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا
أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
﴿٨٣﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة لاستفهام الإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكرون البعث أو أينكرون خلق الله ولم يروا يعني قد رأوا وأقروا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم﴾ أي تولينا إحداثه دون غيرنا لانتفاعهم ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ إسناد العمل إلى الأيدي استعارة تفيد مبالغة في الاختصاص والتفرد بالأحداث ﴿أَنْعَامًا﴾ خصها بالذكر لما فيها من بدائع الفطرة وكثرة المنافع ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ متملكون بتمليكنا إياهم أو متمكنون من ضبطها والتصرف فيها بتسخيرنا إياها لهم ﴿وَذَلَّلْنَاهَا﴾ أي سخرناها ﴿لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ أي مركوبهم يعني الإبل ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمه ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ من الجلود والأصواف والأوبار والنسق له واستعمالها في الحرث وغير ذلك ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من البانها جمع مشربة بمعنى الموضع أو المصدر ﴿أفلا يشكرون﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أينكرون فَلاَ يفكرون لا بل يعترفونه ويكفرون كما يدل عليه قوله ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أشركوها به في العبادة بعدما رأوا منه تلك القدرة الباهرة والنعم المتظاهرة وعلموا أنه المتفرد بها، عطف على مضمون خلقنا لهم يعني أنعمنا عليهم وهم اتخذوا آلهة غيرنا، روى البيهقي والحكيم عن أبي الدرداء أنه قال رسول الله ﷺ قال الله عزَّ وجلَّ: «**إني والجن والإنس في نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري**»[(١)] ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ حال من فاعل اتخذوا يعني راجين أن ينصروهم فيما يحقُّهم من الأمور، والأمر بالعكس لأنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أي أن يمنعوهم من العذاب ﴿وَهُمْ﴾

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي بلا سند، والبيهقي في شعب الإيمان والحاكم وفيه بقية بن الوليدأورده الذهبي في الضعفاء. انظر: فيض القدير (٦٠٠٨).

أي الكفار ﴿لَهُمْ﴾ أي لآلهتهم ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ معدون لحفظهم والذب عنهم في الدنيا وهي لا يسوق إليهم خيراً ولا يدفعون عنهم شراً، وقيل معناه يؤتى يوم القيامة بكل معبود من دون الله ومعه أشياعه الذين عبدوهم كأنهم جند محضرون في النار، الجملة حال من فاعل لا يستطيعون ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ الفاء للسببية يعني إذا سمعت الوعيد للكافرين ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحاد وفيك بالتكذيب والتهجين ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من عداوتك والعقائد الباطلة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من الأعمال والأقوال الشنيعة فيجازيهم عليه وكفى ذلك أن تتلى به وجملة إنا نعلم تعليل للنهي على الإستئناف.

أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حاصل محقة، فقال يا محمد أيبعث هذا بعد ما أرى؟ قال نعم يبعث الله هذا يميتك ثم يحييه ثم يدخلك نار جهنم فنزلت ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ يعني العاص ابن وائل ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى آخر السورة، وأخرج ابن أبي حاتم من طرق عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسديُّ والبيهقيُّ في شعب الإيمان عن أبي مالك وكذا ذكر البغوي أنها نزلت في أبي بن خلف الجمحي خاصم النبيّ ﷺ في إنكار البعث وأتاه بعظم قد بلي ففتته بيده وقال أترى يحيي الله هذا بعدما؟ فقال النبيّ ﷺ: «**نعم ويبعثك فيدخلك النار**» فأنزل الله تعالى هذه الآية، الهمزة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أينكر الإنسان قدرتنا على الإعادة ولم ير يعني قد علم أنا خلقناه من نطفة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ الفاء للعطف وإذا للمفاجأة يعني خلقناه من نطفة ففاجأ وقت خصامه ﴿مبين﴾ ظاهر أنه مجادل بالباطل لا يريد تحقيق الحق لظهوره حيث يعلم ويعترف ببدء خلقه وينكر ما هو أهون منه وهو الإعادة، وفيه تسلية ثانية بتهوين ما يقول له بالنسبة إلى إنكارهم الحشر وفيه تقبيح بليغ حيث أتى الكفر في مقابلة النعمة التي لا مزيد عليه وهي خلقه من أخس شيء وأمهنه شريفاً مكرماً، وقيل معنى فإذا هو خصيم مبين فإذا هو بعدما كان ماء مهيناً مميز منطيق قادر على الخصام معرب عما في نفسه وقيل فهو على مهانة أصله ودناءة أوله يتصدى مخاصمة ربه وينكر قدرته على إحياء الميت وجملة ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ﴾ إلى آخره بدل من قوله ﴿أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً وهو نسي القدرة على إحياء الموتى وتشبيهه بخلقه موصوفاً بالعجز عمَّا عجزوا عنه ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ أي خلقنا إياه من مني وهو أغرب من إحياء العظم ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ حال من العظام إستئناف بيان للمثل والرميم ما بلي من العظام فعيل بمعنى فاعل من إم الشيء صار إسماً بالغلبة فلذلك لم يؤنث أو بمعنى مفعول من رحمته.

قال البيضاوي فيه دليل على أن العظم ذو حياة فيؤثر فيه الموت كسائر الأعضاء يعني بذلك أن عظم الميتة نجس وبه قال الشافعي، وكذا ذكر ابن الجوزي مذهب أحمد في التحقيق وذكر صاحب رحمة الأمة أن الصحيح من مذهب أحمد طهارة السنّ والريش والعظم، احتج القائلون بنجاسة عظم الميتة بهذه الآية وبقوله ﷺ: **«لا ينتفع من الميتة بشيء»** رواه أبو بكر الشامي بإسناده عن أبي الزبير عن جابر قال صاحب المغني وصاحب تنقيح التحقيق إسناده حسن ورواه ابن وهب في مسنده عن زمعة بن صالح عن أبي الزبير عن جابر ولفظه «لا تنتفعوا من الميتة بشيء ولا تنتفعوا بالميت» قال صاحب التنقيح زمعة فيه كلام وللحديث علة ذكرها ابن معور وغيره، قال صاحب الهداية شعر الميتة وعظمها لا حياة فيهما يعني فلا يحلهما الموت فلا يشتملهما الحديث الوارد في النهي عن الإنتفاع بالميتة ويرد على هذا القول هذه الآية فإنها تدل على كون الحياة في العظم، فالأولى أن يقال أن المنجس إنما هو الدم المسفوح ولا دم في العظم والعصب والشعر وإن كانت فيها حياة ولهذا موت ما لا دم له سائلاً من الحيوانات في الماء لا يفسده عن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: **«كل طعام أو شراب وقعت فيه دابة ليس لها دم فماتت فيه فهو حلال أكله وشربه ووضوءه»** رواه الدارقطني، قال الدارقطني لم يروه غير بقية عن سعيد بن سعيد الزبيدي وهو ضعيف وقال ابن عدي سعيد مجهول، وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء»**(١) رواه البخاري، والحجة لنا حديث ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة فقال: «ألا استمتعتم بجلدها؟ فقالوا يا رسول الله إنها ميتة، قال إنما حرم أكلها»(٢) متفق عليه، وروى الدارقطني عن ابن عباس أنه قال إنما حرم رسول الله ﷺ من الميتة لحمها وأما الجلد والشعر والصوف فلا بأس به، وفيه عبد الجبار بن مسلم قال الدارقطني ضعيف لكن ذكره ابن حبان في الثقات قال ابن همام لا ينزل الحديث عن الحسن والعجب من ابن الجوزي أنه احتج بهذا الحديث على طهارة صوف الميتة وشعرها ولم يحتج بها على طهارة العظم واحتج على نجاسة العظم بحديث «لا تنتفعوا من الميتة بشيء» ولم يحتج بها على نجاسة الصوف والشعر، والحق أن المراد بقوله ﷺ لا تنتفعوا من الميتة بشيء لا تنتفعوا من الميت مما يؤكل لتنجسه باختلاط الدم المسفوح وأما العظم والشعر

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب: الطب، باب: إذا وقع الذباب في الإناء (٥٧٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب: الذبائح والصيد، باب: جلود الميتة (٥٥٣١)، وأخرجه مسلم في كتاب: الطهارة، باب: طهارة جلود الميتة بالدباغ (٣٦٣).

والصوف مما لا يختلط بالدم فلا بأس به ولا بأس بالجلد بعد الدباغ وإزالة الرطوبة وفي الباب أحاديث أخر منها ما روى الدارقطني عن ابن عباس قال سمعتُ رسول الله ﷺ «ألا كل شيء من الميتة حلال إلا ما أكل منها فأما الجلد والشعر والصوف والعظم فكل هذا حلال لأنه لا يزكى» وفيه أبو بكر الهذلي قال الدارقطني متروك وقال غندر كذاب وقال يحيى وعلي ليس بشيء، وروى الدارقطني عن أم سلمة قالت سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«لا بأس بمسك الميتة إذا دبغ ولا بأس بصوفها وشعرها وقرونها إذا غسل بالماء»** قال الدارقطني لم يأت به غير يوسف بن السفر وهو متروك يكذب وقال أبو زرعة والنسائي هو متروك وقال دحيم ليس بشيء وقال ابن حبان لا يحل الإحتجاج به بحال، وروى ابن الجوزي من طريق أبي يعلى عن حميد الشامي عن سليمان عن ثوبان أن رسول الله ﷺ اشترى لفاطمة قلادة من عصب وسوارين من عاج، قال ابن الجوزي الحديث لا يصح حميد وسليمان مجهولان قال أحمد لا أعرف حميداً وقال يحيى بن معين لا أعرف سليمان، وأيضاً المراد بالعاج الزبل قال ابن قتيبة ليس العاج هاهنا الذي يعرفه العامة ويخرطه من العظم والناب ذلك ميتة منهي عنه فكيف يتخذ لها منه سواراً إنما العاج الزبل قال ذلك الأصمعي، قال ابن همام قول الأصمعي ليس العاج الذي يعرفه العامة، ويوهم أنه ليس من اللغة وليس كذلك قال في المحكم العاج أنياب الفيلة ولا يسمى غير الناب عاجاً، وقال الجوهري العاج عظم الفيل الواحد حاجة، فتأويل الأصمعي إنما هو لاعتقاده نجاسة عظم الفيل، قال ويظهر من القاموس أن العاج مشترك في الزبل وعظم الفيل وكذا يظهر من النهاية للجزري والزبل جلد السُّلحفاة البحرية أو البرية أو عظام ظهر دابة بحرية يتخذ منها الأسورة والأمغاط كذا في القاموس، وأخرج البيهقي عن بقية عن عمرو بن خالد عن قتادة عن أنس أنه ﷺ كان يمتشط بمشط من عاج، قال البيهقي ورواية بقية عن شيوخه المجهولين ضعيفة، قال ابن همام فهذه عدة أحاديث لو كانت ضعيفة حسن المتن فكيف ومنها ما لا ينزل عن الحسن وله الشاهد الأول من الصحيحين والله أعلم.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإن قدرته كما كان لامتناع التغير فيه والمادة على حالها في القابلية اللازمة لذاتها جملة مستأنفة وقوله ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أي مخلوق ﴿عَلِيمٌ﴾ حال من فاعل يحيي أي يعلم تفاصيل المخلوقات وكيفية خلقها فيعلم أجزاء الأشخاص المتغيبة المتبددة أصولها وفصولها ومواقعها وطرق تميزها وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق وإعادة الأعراض والقوى التي كانت فيها أو أحداث مثلها ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بدل من ﴿الذي انشأها﴾ أو خبر مبتدأ محذوف أي

هو أو منصوب على المدح بتقدير أعني، قال ابن عباس شجرتان يقال لإحداهما المرخ وللأخرى العفار فمن قطع منهما غصنين مثل السواكين وهما خضروان يقطر منهما الماء فيسحق المرخ على العفار يخرج منها النار يقول العرب في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار، وقال العلماء في كل شجر نار إلا العناب ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي ففاجئتم وقت إيقادكم ولا تشكون في أنها نار خرجت منه فمن قدر على أحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماهية المضادة لها بكيفيته كان أقدر على إعادة العضاضة فيما كان عضاً فيبس وبلي ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان فقال ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الإستفهام للإنكار والعطف على محذوف تقديره أخلق السماوات والأرض كما تعترفون به وليس الذي خلقهما مع كبر جرمهما وعظم شأنهما ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ قرأ يعقوب يقدر على صيغة المضارع ﴿عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصغر والحقارة بالإضافة إليهما أو مثلهما في أصول الذات وصفاتها وهو المعاد ﴿بَلَىٰ﴾ جواب من الله لتقرير ما بعد النفي أي هو قادر على أن يخلق مثلهم ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ يخلق خلقاً بعد خلق ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بجميع الممكنات عطف على مضمون بلى ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾ أن يوجد ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي فهو يكون، نصبه ابن عامر والكسائي عطفاً على يقول، قال البيضاوي هو تمثيل لتأثير قدرته في مراده تعالى بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور من غير امتناع وتوقف وافتقار إلى مزاولة عمل واستعمال آلة قطعاً لمادة الشبهة وهو قياس قدرة الله تعالى على قدرة الخالق.

﴿فَسُبْحَٰنَ﴾ مصدر فعل محذوف والفاء للسببية يعني إذا علمتم أنه تعالى خلق الإنسان من نطفة وهو قادر على أن يحيى العظام وأنه إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون فسبحوا سبحان ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ﴾ أي الملك بمعنى القدرة زيدت الواو والتاء للمبالغة ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي تنزيه له عما ضربوا وتعجيب عمَّا قالوا فيه معللاً بكونه مالكاً للملك كله قادراً على كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عطف على قوله بيده وفيه وعد للمقرين ووعيد للمنكرين.

عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ: **«إقرأوا على موتاكم يس»**(١) رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجه وابن حبان والحاكم وفي لفظ «يس قلب القرآن لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له إقرأوها على موتاكم» وذكره الجزري في الحصن الحصين بلفظ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب: الجنائز، باب: القراءة عند الميت (٣١١٩)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب: الجنائز، باب: ما جاء فيما يقال عند المريض إذا حضر (١٤٤٨).

«يس لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له إقرأوها على موتاكم» وعن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس من قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات**»(١) سنده ضعيف رواه الترمذي.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة يس (٢٨٨٧)، وفيه شيخ مجهول.